المبحث الثاني

يهود الخزر والشتات

أولًا: الخزر في أوروبا

لقد عرفت أوروبا موجة من المهاجرين اليهود لم يسبق لها مثيل من قبل، وهذه الموجة قدمت إلى أوروبا الشرقية إبان انهيار دولة الخزر اليهودية وإعفاء ذكرها عقب الحروب والاحتياجات المغولية، وكان على هؤلاء اليهود المشردين أن يبحثوا لهم عن بلاد تلم شتاتهم وتجمع شملهم؛ لذلك رأيناهم يقصدون أماكن الانتعاش الاقتصادي في أوروبا الوسطى والشمالية وجزءًا من أوروبا الشرقية مثل بولونيا وشرق ألمانيا ودول البلطيق وفلندة، تاركين وراءهم أسطورة إمبراطورية ظهرت طوال قرون عديدة ثم انهارت من دون أن تترك أي أثر، وكان نصيب المدن الأوربية الرئيسة تجمع هؤلاء اليهود في مراكزها، يقول آرثر كيستلر: «بدأت مناطق أوروبا الوسطى والشرقية التي كفلت لمهاجري خزر اليهود وطنًا جديدًا وأمنًا معلنًا تكتسب أهمية سياسية نحو نهاية الألف الأولى من الميلاد فقط»[1].

(١) كيستلر مصدر سبق ذكره ص ١٣٢.

لقد أصبحت هناك روابط سياسية بين هذه البلدان الأوربية حال وصول هؤلاء اليهود المهاجرين إليها، وسنرى في هذا المبحث كيف أن اليهود أدوا هذا الدور السياسي من خلال تجمعاتهم العنصرية هناك[1].

يقول نصر شمالي في كتابه ملاحظات أساسية حول تاريخ المسألة اليهودية: «لايعنينا هنا الأصل العرقي لليهود، وقد عرفنا أن بضع مئات من الآلاف وربما أقل من ذلك بكثير هاجرت من سواحل بحر قزوين الى أوروبا الشرقية في القرن الحادي عشر، وأن هجرة أخرى تمت بعد مئات السنين في أواخر القرن الخامس عشر كانت أقل عددًا من الأولى بكثير أيضًا، وقدمت من إسبانيا لتستقر في أوروبا الغربية. لقد تحققت كلٌ من الهجرتين قسرًا وفي ظل تحولات تاريخية خطيرة عُظمى، ولم تكن تلك التحولات تتناول اليهود تحديدًا وإنما هي تناولتهم ضمنًا.

لقد انتُزع اليهود في كلا الهجرتين من مواطنهم الأصلية انتزاعًا، واقتلعوا من وسطهم الطبيعي، الثقافي والاقتصادي، وقد حمل المهاجرون الخزريون معهم إلى أوروبا الشرقية تجربتهم الطويلة في التماس والتعامل مع النظام الإسلامي؛ إذ كانو يعيشون على تخومه، وهؤلاء قد أصبحوا يُدعون فيما بعد

(١) زعرور، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٧.

بالأشكنـازيم، وحمل المهاجرون الأندلسيـون[1] معهم إلى أوروبا

(١) في عـام (١٤٩٢ م) استلـم الملك فرديناند وزوجته أزبيلا حكـم إسبانيا حين انتهى الحكم الإسلامـي فيها، وكان الملك فرديناند وزوجته كاثوليكيين شديدي التعصب، يحمـلان وجهتي نظر عـن اليهود بسبب سيدنا عيسى عليه السلام، فضلًا عن ذلك تجـد أن قيـام اليهـود بمحاولات التغلغـل في مجتمعـات وحريم ومصـارف الشعب الإسبـاني، بقصـد التخريب قد زاد من غيـظ الملك والملكة، وزيـادة إلى ذلك قيام اليهـود بتفسـير الفلسفـة اليونانيـة، مدعـين بأنها قطعة مـن الشريعـة اليهودية، قاصدين بذلك نشر أحكام الثورة تحت هذا الشعار؛ مما جعل الملك فرديناند يعمل علـى تنصير اليهود للتخلص مـن أفكارهم هذه، ووضع نهايـة لآفكارهم وحركتهم الهدامـة ضد المسيحية تحت قنـاع العلم والفلسفة، وقد تنصـر بعضم ظاهرًا، وفي الوقت نفسه قام الملك بطرد أكثرهم من ثلث مئة ألف يهودي من إسبانيا؛ وذلك في ٢ آب ١٤٩٢، وكان مـراد الثاني على كرسي السلطنـه العثمانية، إذ استجاب لطلب تقـدم به حاخامات يهـود أوروبا يستعطفونـه في السماح ليهـود إسبانيا المطرودين باللجـوء إلـى الدولـة العثمانية، وفعـلًا تم لليهود ذلـك عندما وافـق بايزيد الثاني دون قيـد أو شـرط أن يرسل له قسمًا منهم إلى جزيـرة ساقز ليعيشوا بحرية تامة، كذلـك عندما فتح السلطان سليمان القانوني جزيرة رودس عام ١٥٢٢م أتى اليهود الذيـن استقـروا في جزيـرة ساقز إلـى رودس ومنحهـم امتياز معـدن الكبريت في (أينجـر لي) ليصبح هؤلاء أهـل الثراء والمال بعد أن عاشوا حياة البؤس والفاقة في مناطقهم السابقة.

ثم بعـد وصول الأتراك العثمانيون إلى بودابسـت سنة ١٥٢٥ واقتحام الجيش العثمـاني المجـر سنـة ١٦٧٤ وجد الأتـراك أمامهـم جماعات من اليهـود تعيش في الفقـر والفاقة والأوضاع الرديئة، فحملوهم إلى المـدن الرئيسة في الدولة العثمانية كالقسطنطينية وأدرنة وأزمير وسلانيك وبلوانه وغيرها، وبالتالي فقد سيطر هؤلاء على مفاصـل الاقتصاد في الدولة العثمانية، وتدخلـوا في مجتمعات وحرم السلطنة بعـد أن تمتعـوا بقـدر من الاستقـلال الذاتـي والرفاهيـة التامة التـي تمكنهم من الحصول على مناصب مهمة في المراكز الحساسة، بل وصل الأمر إلى زواج السلطان سليم الثاني من اليهودية (نورباتو)، وهكذا كانت نهاية الخلافة الإسلامية في تركيا علي يـد اليهود... راجع: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧ – ٢٨. وللمزيد من التفاصيل راجع: النعيمي، أحمد نوري، الدور السياسي ليهود الدونمه في تركيا، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، طرابلس، ٢٠٠١، ص ١١– ٢٠.

الغربية خبرتهم الإسلاميـة العميقة في المجالات كافة؛ إذ كانوا جزءًا لا يتجزأ ولا يتميز في النظام الإسلامي.

وهـؤلاء هم مـن أصبحوا يدعـون فيما بعـد بالسفارديم، وقـد كان كلاهما الخزريون والأندلسيـون متفوقين في وظائفهم الاقتصادية والثقافية والدينية على الأوربيين في الغرب والشرق، ولم يكـن ذلك التفـوق في جوهره سوى شكل بسيـط من أشكال تفوق النظام الإسلامي في طوره العالمي، وقد رأينا كيف استوطن اليهـود في أوروبا على خطوط مواصلات اتحـاد المدن التجارية الأوربيـة، وما كان لهم بالطبع أن يفعلوا غير ذلك، نجد أن مثل هذا الاستيطان لا يعني شيئًا في إطار النظام الإسلامي المتقدم، لكنـه كان يعنـي الكثـير فيمـا يخصـ التشكيـلات الاجتماعية المتخلفـة في أوروبا الإقطاعية، ومن هنا بـدأت المسألة اليهودية بالظهـور في تلك المناطق بعد أن تلاشـت تمامًا خلال ثمان مئة عام تقريبًا في معظم مناطق العالم المتحضر[1].

تقول المصادر التاريخية إن اليهود السلافيين بصورة عامة وكذلـك يهود هنغاريا يعودون في أصولهـم التاريخية إلى ليهود الخـزر، وكان هؤلاء قـد أسسوا في العصـور الوسطى ما يعرف بالمجتمع اليهودي الشرقي الذي كان يشكل غالبية يهود العالم،

(١) نصر شمالي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١ - ١٢٢.

أمـا يهود بولونيا فغالبيتهم مـن الإشكينازيم الذين هاجروا من ألمانيـا إلـى بولونيا بعد سلسلـة أعمال الاضطهـاد التي رافقت انتشار الطاعـون الأسود عـام ١٣٤٩م، والتي تلت ذلك، يقول إسحـاق دويتشـر: إن يهود أوروبا الشرقيـة بصورة عامة ويهود روسيـا بصورة خاصة، خلافًا ليهـود أوروبا الغربية لم يندمجوا خـلال القرن التاسـع عشـر في مجتماتهم، لقد عاشـ الملايين في شرقـي أوروبا جماعـات منفصلة يرتـدون مـلابس مميزة، ويتكلمـون لغتهم الخاصة، ويطورون ثقافتهـم وأدبهم، وبقيت البـديشيـة لغتهم[1]، ويتابـع دويتشر: ولم يكـن انعزالهم هـذا

(١) لغة اليديش (Yidish) هي اللغة العامية لمعظم اليهود الأشكنازيم في وسط وشرقي أوروبـا، وكانت منذ عـام (١٨٠٠)م منتشرة من هولندا حتـى أوكرانيا، ومن لاتفيا حتـى رومانيا، بينمـا أهملت هذه اللغـة في ألمانية وهولندة في القـرن التاسع عشر، وحملهـا المهاجرون إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشماليـة وفلسطين وباقي القارات. وفي عـام ١٩٣٩ كان تعـداد الناطقـين بها أحد عشـر مليونًا، تناقص عددهم جدًا بعدمـا قتـل النازيون من ثلاثة إلى ستـة ملايين يهودي في أوروبـا، والبديش خليط لغـوي منذ بدايتهـا في القـرن التاسع وخلال ألـف سنة من وجودهـا، فيها العبري وجرمانيـة القرون الوسطى ولاتيني وآرامـي وسلافي، وتكتب بالحرف العبري، وهي في طريقها إلى الاندثـار. في دول أوروبا الشرقية دخلت كلمات من اللغات السلافية وتأثـر الصـرف والنحو واللهجـة منذ القـرن الرابع عشـر. وقد تسربـت الكلمات الألمانيـة إلى اليديش مـن المناطق الشرقية من ألمانيا (النمسـا وبافاريا) المجاورة للحـزام السلافي لأوروبا الشرقية لغـة القرن الخامس عشر وهذه اللغة عدة لهجات متقاربة الغربيـة والوسطى والشمالية والشرقية والجنوبيـة الشرقية حسب التوزيع الجغـرافي لليهود في أوروبا، ولم تبرز لهجة خاصة في الولايات المتحدة، لكنها تأثرت بالإنكليزيـة، وفي نهايـة القـرن الثامـن عشر كانـت اليديش ترتكز علـى اللهجات الغربيـة، بينما تحولت في القرن التاسع عشر إلى اللهجـات الشرقية. راجع: بشور، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١ – ١٦٢.

بتأثير من الصهيونية، فقد ظلت الأغلبية العظمى منهم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية معارضة للصهيونية، ومع هذا فإننا نجد يهود أوروبا الشرقية -وبحكم الظروف التي خلفتها الحرب العالمية- كانوا هم قوام الدولة الصهيونية في فلسطين فيما بعد، والتي وصفت بأنها (مستعمرة روحية ليهود أوروبا الشرقية)، وظلت أوروبا الشرقية إلى وقت قريب، وعلى وجه التحديد إلى ما قبيل الحرب العالمية الثانية أحد أكبر مراكز الجماعات اليهودية في العالم، وقد أسهمت ظروف نشأة الاتجاهات الفاشية في ألمانيا، وخضوع دول أوروبا الشرقية للسيطرة النازية في تشتيت وتقليص حجم الجماعات إلى حد بعيد، وقد كان ظهور التيارات المناهضة لليهودية في ألمانيا وأوروبا الشرقية بمثابة الفرصة الذهبية التي استغلتها الصهيونية لتوجيه جانب كبير من سبل الهجرة إلى فلسطين تحت الانتداب، أولًا ثم إلى (دولة إسرائيل) بعد عام ١٩٤٨، كذلك استغلت المنظمات الصهيونية عطف الرأي العام الأوربي على اليهود نتيجة المحنة التي تعرضوا لها في أيام السيطرة النازية على أوروبا، ومساعدة الحكومات الغربية وخاصة حكومتي بريطانيا والولايات المتحدة[1] لتوجيه

(١) يقول وليام شيرر: لم يكتف النازيون من حرمان اليهود من كماليات الحياة وطرائفها، بل حرموهم أيضًا من ضروراتها، فكان اليهودي يجد من الصعوبة بمكان العثور على الطعام عن طريق الشراء، فهناك على أبواب حوانيت البقالة وبيع اللحوم ومحلات الألبان لافتات كتب عليها: «يمنع دخول اليهود»، وقد استحال على اليهود أيضًا الحصول على الحليب لتغذية أطفالهم، كما أن الصيدليات كانت تمنع عليهم =

أكبر عدد ممكن من يهود أوروبا الشرقية ومن اليهود الذين تم ترحيلهم من معسكرات الاعتقال النازية إلى أرض فلسطين.

والغريب أن حكومات أوروبا الشرقية حتى بعد دخولها في النظام الاشتراكي تركت باب الهجرة أمام مواطنيها اليهود

= بيع الدواء، و كانت الفنادق ترفض مبيتهم فيها، وحيثما ذهبوا كانوا يجدون لافتات مؤلمة تحمل عبارات مثل: «يمنع على اليهود منعًا باتًا دخول هذه المدينة» أو مثل: «إذا دخل اليهود هذا المكان فعليهم أن يتحملوا مسؤولية هذه المجازفة»، وارتفعت لوحة عند منعطف حاد وخطر على مقربة من لودفيغر هافن تقول: «قد سيارتك بعناية! منعطف حاد وخطر، أما اليهود فعليهم السير بسرعة ٧٥ ميل في الساعة».

لقد سن هتلر قوانين صارمة ضد اليهود أحالتهم إلى مرتبة (الرعايا) لا المواطنين، وحظرت التزاوج بين اليهود والآريين، والعلاقات غير الزوجية معهم،كما شرع قانونًا يعد اليهود أناسًا لا شرعية لوجودهم كليًّا، وحرموا من الوظائف العامة والخاصة والعمل في الصحافة والإذاعة والزراعة والتعليم، كما أخرجوا من أسواق البورصة، ومنعوا من ممارسة المحاماة والطب والتجارة. راجع بذلك: شيرر وليام، تاريخ ألمانيا الهتلرية، تعريب: خيري حماد، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٦، ص ٤٢٧ – ٤٢٨.

يرد على هذا الرأي أدولف هتلر قائلا: «اكتشفت مع الأيام أن ما من فضل مغاير للأخلاق، وما من جريمة بحق المجتمع إلا ولليهود فيها يد، واستطعت أن أقيس مدى تاثير الشعب المختار في تسميم أفكار الشعب وتخديره وشل حيويته، بتتبعي نشاطه في الصحف وفي ميادين الفنون والآداب والتمثيل، فقد امتد أخطبوط اليهود إلى هذه الميادين جميعًا، وفرض سيطرته عليها ووسمها بطابعة... و عجّل في بلورة موقفي من اليهود تكالبهم على جمع المال، وسلوك معظمهم السبل الملتوية لبلوغ هذه الغاية، وترويجهم سوق الدعارة، وفي الإتجار بالرقيق الأبيض، وهذا الدور الذي يؤديه أبطاله مهارة لم ينتبه إلى خطورته الشعب الألماني إلاّ في الحرب العالمية الكبرى. أما أنا فقد سرت القشعريرة في جسدي عندما اكتشفت أن اليهودي هذا المخلوق الوديع هو الذي يستثمر البغاء السري والعلني، ويجعل منه تجارةً رابحة...». راجع: هتلر، أدولف، كفاحي، دار بيروت، ص ١٩ – ٢٠ ٢٠٠ – ٢٠٧ ٢٠٨ – ٢١٢.

مفتوحًا، وقاد ذلك إلى تصفية جاليات يهودية بأكملها تقريبًا في أوروبا الشرقية مثل: بلغاريا ويوغوسلافيا، وإلى انخفاض عدد هذه الطوائف بصورة صارخة في بلدان مثل: بولونيا ورومانيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وكان استمرار تدفق الهجرة اليهودية يتم بمفاوضات رسمية بين المنظمات الصهيونية وحكومات هذه الدول[1].

ثانيًا: يهود الخزر في المجر

وقد ذكرنا قبل قليل أن يهود الخزر كانت لهم محطات بشرية في الدول الأوروبية والدول المجاورة لمملكتهم شغلت أدوارًا أشبه ما تكون بالسفارات أو البعثات الدبلوماسية، ومن جهة أخرى كان حكام بعض الدول المجاورة يستفيدون من وجود الجاليات اليهودية الخزرية في بلادهم، فقد حدث في القرن العاشر الميلادي أن الدوق المجري (تاكسوني) قد دعا إليه عددًا من اليهود الخزر للاستيطان في مقاطعته، ونرى أن هؤلاء بعد مدة تقرب من المئتي سنة قد تركوا أثرًا واضحًا يتمثل في أعداد كبيرة من الجنود في الجيش المجري، وقد أدى هؤلاء دورًا جوهريًا في السياسة الداخلية للمجر، وأصبحوا فيما بعد يتمتعون بثقل اجتماعي وسياسي بالوقت نفسه.

---

(١) ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري البصري، (ت ٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة بن خياط، حققه: سهيل زكار، مطابع دار وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٧ ص ٤٢٦.

ونـرى أن القديس (ستيفن) الذي تـرك اليهودية واعتنق الكاثوليكية فيما بعد كان يهوديًّا خزريًا، كما أن نفوذًا لا يستهان به قد امتد في عنعنـات السلطة وفي البلاط الملكي المجري، مما حـدا بالملك (أندريه الثاني) سنـة ١٢٢٢م أن يصدر أمرًا ملكيًّا ينصـ فيـه بعدم الجـواز لليهـود أن يعملوا رؤسـاء في دار سك النقـود أو جبـاة ضرائب أو مراقبين للاحتـكار أو ما يشبه ذلك مـن الوظائف، وهذا الأمر يدلل لنا على أن اليهود كانوا يشغلون وظائف كثيرة في الدولـة، والواقع أنهم شغلوا مناصب أعلى من تلك بكثير؛ فقد كان أمين إرادات الملك يهوديًّا خزري الأصل؛ هو الكونـت (تيكا)، وكان ثريًّا امتلك أراضـ كثيرة في الدولة، وقد جعلته عبقريته وذكاؤه أن يكون مسؤولًا عن العديد من معاهدات الصلح والاتفاقـات المالية بين المجر والنمسـا، وكان دوره أشبه بـدور اليهـودي الإسباني حسـداي بن شـبروط في بلاط خليفة قرطبـة، ويذكر أنـه احتفظ في منصبه هذا إحـدى عشرة سنة بعد صدور أمر الملك بمنع اشتغال اليهود في المناصب الحساسة؛ إلا أن الضغـط البابـوي على الملـك اضطره إلـى أن يطلب منه الاستقالة والرحيل إلى النمسا.

وهكذا فإن الوجود اليهودي الخزري في المجر له خاصيتهن إذ كان للعلاقـة القديمـة بـين الخـزر والمجريـين أثـر كبير في ذلـك، وإن إرسال الخزر فروعهـم إلى المجر أيام زهو مملكتهم

كانت نتائجه إنقاذ مستقبل الجماعات اليهودية المشتتة على أيدي المغول[1].

إن الأصل الخزري ليهود المجر ثابت وثائقيًا، وإن الأعداد المهاجرة إلى المجر من اليهود انطلقت من السهوب الأوراسية نحو الغرب، أي نحو أوروبا الوسطى والشرقية، وقد قاموا بتأسيس مستعمرات ومستوطنات خزرية في أماكن مختلفة من المجر، وقد سموا الكثير من الأحياء والمستعمرات التي أقاموها بأسماء خزرية، وكما فعلوا ذلك في الأماكن الأخرى من روسيا وأوكرانيا وجنوب روسيا، وطبقًا لما جاء في مقال عنوانه (إحصاءات) في دائرة المعارف اليهودية فقد بلغ المجموع الكلي لليهود في العالم أجمع في القرن السادس عشر نحو مليون نسمة، وهذا فيما يدل طبقًا لما يراه بولياك وكوتشيرا وغيرهما أن غالبية من أعلنوا اعتناقهم لليهودية في العصور الوسطى كانوا من الخزر الذين رحلوا إلى المجر وبولندا ولتوانيا والبلقان، وأسسوا ذلك المجتمع الشرقي الذي أصبح بدوره الغالبية المسيطرة من يهود العالم.

وهناك أسباب أخرى تعزو الدور القيادي في نمو وتطور المجتمع اليهودي في البلدان التي هاجر إليها اليهود عقب انهيار إمبراطورية الخزر أيام انتعاش حالتهم السياسية، وكانت هذه

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠ - ١٤٣.

القواعد بمثابة بؤر تجمعية اهتمت بجميع شؤونهم ورتبت لهم الأوضاع التي يحتاج لها عند فقدانهم للكيان الخزري، مما أهلتهم هذه الترتيبات المقدمة إلى إشغالهم مناصب ممتازة استطاعوا احتكارها والسيطرة عليها نتيجة خبرتهم الماضية في حياتهم التجارية الداخلية والخارجية.

و كتب بولياك يقول: «بعد الفتح المغولي هامت القرى السلافية نحو الغرب، وانتقلت معها المدن الخزرية»، ويحتمل أن رواد المستوطنات المجرية كانوا من الأغنياء الخزر، فعبروا بولندا سالكين الطرق التجارية المألوفة نحو المجر، وهذه الطريقة فتحت الطريق للمهاجرين أن يجعلوا بولندة منطقة عبور بين بلادهم الأصلية والمجر، فضلًا عن كونهم مُلمين بأحوال المناطق التي كانوا يجوبونها؛ مما أتاح لهم الاتصال بأصحاب الأراضي الذين يبحثون عن مستأجرين[1].

ثالثًا: يهود الخزر في بولندا و أدوارهم السياسية

تعود التجمعات اليهودية في بولونيا إلى أصول خزرية اعتنقت الديانة اليهودية في بداية ازدهار إمبراطورية الخزر في القرن الثامن الميلادي، ثم أخذوا بالانتشار شمالًا بعد انهيار الإمبراطورية في القرن الثاني عشر، وقد امتازت هذه

(١) العاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣ – ١٠٦.

الجماعـات اليهودية بأنها احتلت وظيفة اجتماعية محدودة هي الوظيفـة التجارية التي وضعتهـا في مرتبة اجتماعية متميزة في حقبـة تاريخية معينـة، وحالت دون ذوبانهـا في المجتمعات التي تقيـم فيهـا، والتي تختلـف عنها اختلافًـا طبقيًّا كبـيرًا، وتؤكد الوثائق المتوافرة لدى المؤرخين هذه الوظيفة للجماعات اليهودية المتدفقـة على المجتمعات الإقطاعيـة الأوروبية الشرقية؛ إذ عُثر مثـلاً على نقود بولونيـة تحمل حروفًا عبرية يعـود تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، كما يُشار إلى وثيقة تعود إلـى ١١١٣م جاء فيها أن سكان مدينة كييـف الروسية يتأهبون لنهـب قصور وأمـوال الأمراء اليهود، وبـأن الفلاحين في إحدى المدن قـد شهروا عام ١٤٣١م السلاح مطالبـين بتسليم اليهود؛ «لأنهم أفقروهم وجردوهم من ثيابهم الأخيرة»[١].

ويُشـار إلـى أن مواقع هـؤلاء التجار تعـززت في الأراضي البولونية بفضل الحماية والرعاية التي منحها الأمراء البولونيون للتجار بشكل عام، وامتاز هذا بظهور الطبقة الاجتماعية المتميزة عـن الفلاحين والأقنان في كل مفاصل الحياة، مما ساعد هؤلاء التجـار إلى بلوغ الثراء الفاحش والسيطرة التامة على اقتصاد وتجـارة المقاطعات البولونية، ولم يكتفِ الأمراء البولونيون بهذه

(١) حجـاوي، سلامة، اليهود السوفييت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٠ ص ٨.

الرعايــة لليهود؛ فقد راحوا يحثــون الروس على السماح للتجار اليهــود بدخول موسكو، وذلك أن القياصرة الروس منعوا دخول هــؤلاء التجار إلى أراضيهم، وكانــوا يحرقون البضائع التي كان يحملها التجار القادمون إلى موسكو عند أبواب المدينة، إذ إنهم وجــدوا في التجار اليهود مــن يحمل بذور الثقافــة الغربية التي يكرهونهــا في مجتمعهم الســلافي المتزمــت والمتمسك بالمذهب الأرثوذوكســي، فقد بعث إيفــان الرهيب قيصــر روسيا في عام ١٥٥م رسالــةً يرد بها على ملك بولونيا قائلًا: «ليس من الملائم السماح لليهود بالمجيء ببضائعهم إلى روسيا نظرًا إلى ما ينجم عن ذلك من شرور؛ فهم يأتون بالأعشاب السامة (الأدوية) إلى أراضينــا، ويغرون الروس بعيدًا عن المسيحيــة؛ لذلك أرجو من ملك بولونيا ألا يكتب إلينا بهذا الشأن ثانية».

وكان عدد هؤلاء اليهود خلال القرنين الثاني والثالث عشر لم يتجــاوز بضعــة آلاف، ولما كانت الأراضــي الروسية مغلقة في وجوههــم فقــد قفز عدد اليهــود في بولونيا إلى خمســ مئة ألف شخص، ويعزي سبب هــذا الارتفاع إلى طبيعة ازدهار الأوضاع الاقتصادية، وتوســع الأعمال التجارية، ودعم السلطة البولونية التــي منحتهــم حــق تشكيــل مجلــس سمــي (الكحــال) لإدارة شؤونهم الخاصة، كما تعهدت الدولة بوضع قواها العميقة تحت تصرفهم في الحــالات الموجبة، ويوصف ذلــك العصر بالعصر

الذهبي لليهود، زيادة على ذلك فقد استطاع هؤلاء التجار اليهود الاستيلاء على أملاك الاقطاعيين بطرائقهم المالية المعروفة من تراكم الديون والفوائد، وفوق هذا كله فقد عُيِّن رجل الأعمال اليهودي يوسفوفيتش أمينًا لخزينة الدولة ووكيلًا لأملاك العائلة المالكة. إلا أن معالم التدهور في أوضاع اليهود الاقتصادية قد بدت في أواخر القرن السادس عشر؛ وذلك نتيجة اشتداد المنافسة بين البرجوازية اليهودية والبرجوازية البولونية الأصل، كذلك ازدياد عدد اليهود، مما دفع السلطة إلى محاولة حماية هؤلاء من الانهيار، فقسمتهم إلى فئتين: الفئة الأولى المرتبطة بالملك والمكونة من كبار التجار، والفئة الثانية من صغار التجار وجباة الضرائب وأصحاب الخمارات والصناعيين؛ مما سبب ذلك في نشوب الكثير من النزاعات التي أفضت إلى عزل اليهود في أماكن سكنية خاصة، نشأ من خلال ذلك بعض أشكال (الغيتو) اليهودي[1].

(١) الغيتو أو الجيتو هو الحي الذي يفرض على اليهود أن يعيشوا فيه داخل مدينة سكانها من غير اليهود، وكان الجيتو ابتداءً من النصف الثاني للقرن السادس عشر فصاعدًا الشامل الجامع لليهود في أي بقعة في العالم المسيحي وفي معظم العالم الإسلامي، وكان الجيتو محاطًا بأسوار لها بوابات تغلق ليلًا، الأمر الذي سبب لقاطنيه مرض الخوف من العيش في الأماكن المغلقة، والتفكير الضيق، ولكنه خلق أيضًا جوًّا من الأمن في أوقات الشغب، ونظرًا لتعذر توسع مساحة الجيتو فإن السكان يعيشون فيه بأحوال صحية سيئة. راجع: كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

وقد تطورت أوضاع اليهود إلى أن مُنع التجار اليهود من الإقامة في المدن الكبيرة؛ نتيجة للاحتجاجات المطالبة بوضع حد لتجاوزاتهم، زيادة على ما يلاقيه اليهود العاملون في خدمة الإقطاعيين من الاضطهاد والتنكيل، وتردت أوضاع الإمبراطورية البولونية وتفاقمت النقمة والتذمر، وتشكلت تنظيمات تهاجم مواقع اليهود رافعين شعار: «علقوا البولوني واليهودي والكلب على الشجر»، وتردت أحوال اليهود في ذلك الوقت، وأخذت بالانحدار التدريجي نحو الفقر، وظهر الشحاذون والعاطلون في صفوف اليهود، وانتشرت الأمية وحلت القبالة[1] محل التلمود، وفقد الكحال سيطرته على جموع اليهود، وترافق ذلك مع أوضاع الإمبراطورية البولونية عامة إلى أن استطاعت السلطة القيصرية الروسية من استعادة بعض الأراضي الخاضعة

(١) القبالة معناها في اللغة القبول والتلقي للرواية الشفوية، وفي هذا المجال عرف (لويس غنزبرغ) أستاذ التلمود في المدرسة اللاهوتية في نيويورك (القبالة) بأنها مصطلح يراد به التعليم الباطني المتعلق بالله والكائنات، ونزل هذا وحيًا على أكرم القديسين في الزمن القديم، واحتفظ به عدد قليل من الأخيار، وكانت القبالة في مراحلها الأولى تدعى (الحكمة المستورة)، وأطلق على دارسيها (طلاب النعمة)، وقال هـ. فلمان في كتابه تاريخ اليهود من أقدم الأزمنة إلى العصر الحديث: «القبالة سر فوق الأسرار ادعت القدم والوحي والرواية عن الأوائل والقبائل، كانت قائمة على عدم التنجيم السحري، تعاطاه كثيرون فسموا الحكماء، وجعلوا هذا المعنى يتضمن المعنى الباطني لتفسير الناموس، والأنبياء درسوا التلمود ثم اجتازوه إلى تعاليم أعلى وأبعد، كأن كتابهم (الأشراف) والزهور دستورهم المقدس، والقبالة السرية تبدو على طول المدى. راجع: النعيمي، أحمد نوري (دكتور) يهود الدونمة. دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، دار النشر للتوزيع والنشر بغداد، ١٩٩٥ ص ١٧.

للإمبراطورية البولونية التي تضم عددًا كبيرًا من اليهود الذين يقيمون فيها، وعلى الرغم من كرههم لهؤلاء فقد سُمح لهم بالبقاء فيها، ويعتقد أن هؤلاء هم الذين شكلوا ما عرف فيما بعد (بمجموعة يهود موسكو).

يقول كيستلر في كتابه القبيلة الثالثة عشرة: «ففي عام ٩٦٢م ألفت عدة قبائل سلافية حلفًا تحت قيادة أقواها وهي قبيلة (البولان) التي أصبحت نواة الدولة البولونية، وهكذا كان بزوغ نجم بولندا متزامنًا مع تدهور دولة الخزر، ومما لا شك فيه أن اليهود يؤدون دورًا مهمًّا في إحدى الأساطير البولندية القديمة التي لها علاقة بتأسيس المملكة، إذ تروي لنا الأسطورة انتخاب (اليهودي إبراهام بروكوفنيك) ملكًا لها، وهذا كان تاجرًا خزريًّا، وهذه الحالة تدلل لنا على ترحيب البولنديين بهجرة يهود الخزر إليهم بعدِّهم قوةً اقتصاديةً هم بحاجة إليها؛ شأنهم شان الأكان والأرمن والسلاف الجنوبيِّين الذين رحبت بهم المملكة من أجل بناء الحضارة والمدينة الجديدة. ثم إن المملكة اتخذت إجراءات مشجعة لجذب المهاجرين إليها ومن ضمنهم يهود الخزر؛ وذلك بإصدار البراءة الملكية التي تحفظ للمهاجر حق الاستيطان والاحتفاظ بحقوقه وامتلاك الأراضي والعمل في أي حرفة.

كما يحق للجالية اليهودية بناء المعابد والمدارس والمحاكم الخاصة بهم بل إن برلمانًا خاصًا باليهود قد قرر لهم وكان يحتفظ بسلطة الضرائب وفرضها على أقرانهم في الدين. وقد وصل نفوذ اليهود في البلاد إلى تعالٍ مستمر يدلل عليه كتابٌ أرسله البابا (كلمنت الرابع) إلى أمير بولندي يذكر فيه أن روما تعلم تمامًا بوجود عدد كبير من المعابد اليهودية في المدن البولونية، ويعلن البابا أسفه من طبيعة وفخامة هذه المعابد التي تبدو الكنائس هزيلة بجوارها[1].

وتكشف المصادر التاريخية البولندية عن الأدوار الاقتصادية التي شغلها اليهود في تلك الحقبة لما كانوا يمتلكونه من القدرة والإمكانيات الخاصة بالتجارة الخارجية والداخلية، فقد كان أكثر المرابين ورؤساء دوائر سك العملة منهم، فضلًا عن مديري الدخل الملكي وأصحاب المصارف وجباة الضرائب؛ بل إن هناك أسماءً يهودية كانت تُكتب أحيانًا على العملة، ولم تقتصر نشاطات اليهود على التجارة؛ بل أصبحوا يمتلكون الأراضي الواسعة، إذ صاروا يملكون قرىً بأكملها، أخذت تتوسع ليسكن فيها اليهود بشكل جماعي يمارسون فيها الزراعة وغيرها من الحرف، ومن الأعمال التي اختص اليهود بها إدارة الطواحين والفندقة وتجارة الفراء[2].

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧ – ١٤٨.

(٢) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨ – ١٥٠.

أمـا الأوضاع الاجتماعية لدى اليهـود فإنها غالبًا ما تتغير بالاتجـاه المعاكـس لطموحاتهم؛ وذلـك بأن سلـوك الجماعات اليهودية في أماكـن عملهم تعكس عليهم نمط السكان الأصليين أو الحكومـات، فتتغلـب الظـروف الاجتماعية علـى اليهود كما حصـل في قيام الإقطـاع في القرن الرابع عشـر في بولندا الذي تسبـب في نقل فلاحـي بولنـدا شيئًا فشيئًـا إلى رقيـق لا يجوز لهـم ترك قراهم وليست لهم حريـة الحركة، فضلًا عن إصدار البرلمان البولنـدي قرارًا يمنع اليهود حيـازة أرض زراعية. أما أصحـاب المهن الأخرى من اليهود فلم تستقِم لهم المدن لتستقر فيهـا أعمالهم؛ لذا نراهم يتجهون إلى الحرف الشعبية كصناع العجـلات والصاغـة والخياطين وجـزاري اللحـم والخبازين، كذلـك كان هنـاك كاتبو الرسائـل للأميين والـرواة المتجولين، كمـا احتكر بعضـ اليهود بعض الأنواع مـن التجارة مثل: تجارة الخشب وتجارة العربات.

أمـا عـن مستقبل اليهـود وأدوارهم السياسيـة التي أدتها تجمعاتهم في بولندا فيذكر لنا المسيري في الموسوعة اليهودية أنه كانت الجماعة اليهودية في بولندا وحدة أساسية تستمد وجودها داخـل التشكيل السياسي الحضـاري البولنـدي، إلا أنهم كانوا جماعـة وظيفية وسيطة تتطلـع في وظائف المال والتجارة وبمهن وحرف معينـة، والجماعات الوظيفية عادة مـا تحتفظ بعزلتها

وسماتهـا الإثنية (التـي أحضرتها معها من موطنهـا الأصلي) حتى تتمكن من الاضطلاع بوظيفتها في المجتمع التي وفدت إليه، وكان يهـود شرق أوروبـا يتحدثون الأييدشيـة في وسط يتحدث إمـا البولندية وإما الأوكرانيـة، ويرتدون أزياء مميزة، ويؤمنون باليهودية في وسط يؤمن بالمسيحية، وقد عاشوا في مدن صغيرة وفـرت لهم تربة يهودية يديشية معزولة نسبيًّا عن عالم الأغيار، لكـن عقيدتهم اليهوديـة نفسها بـدأت تدخلها عناصـر صوفية بتأثير القبالة (بتأثير المسيحية الأرثوذكسية الشعبية والهرطقات الدينيـة المختلفة التي وجدوها بين الفلاحين السولافيين)، ومما يجـدر ذكره أن المستـوى المعيشي لليهود الييديشيـة كان مرتفعًا قياسًا لعامة الشعب من الفلاحين والأقنان.

وتعرضـ تماسك اليهود الييديشية لعدة هجمات وضربات خلخلت وضـع الجماعة اليهودية، وكان أعظمهـا تقسيم بولندا الـذي أنهى وجودهـا السياسي في عـام (١٧٩٥م)، وبتقسيمها بـين الإمبراطورية الروسيـة والإمبراطوريـة النمساوية وألمانيا (بروسيـا)، وقد ضمت روسيا أكبر الأراضـي التي كان يسكنها أكبر عـدد من اليهود أيضًا. وقد كانـت حكومات البلاد الثلاثة التـي اقتسمت بولندا وسكانها اليهـود، ويحكمها حكام مطلقون مستنـيرون وهم (فردريك الثاني– روسيا) و(جوزيف الثاني– النمسـا) و(كاترين الثانيـة– روسيا)، فتبنت هـذه الحكومات

مقياس مدى نفع اليهود وإمكانية إصلاحهم وتقليل عزلتهم، فتم تقسيمهم إلى نافعين وغير نافعين، وكان الهدف إصلاح اليهود وزيادة عدد النافعين وطرد الضارين منهم أو منع زيادتهم، وبهذا تلقى يهود الييديشية هذه الضربات في مرحلة كانت اليهودية تمر فيها بأخطر أزماتها؛ إذ ظهرت الحركات الفرانكية والحسيدية التي تحدت سلطة مؤسسات اليهود الحاخامية، وتولدت الصراعات الحادة بين تلك الحركات؛ مما أدى إلى تفاقم الأوضاع وتدهورها نحو الأسوأ، ومما زاد في ذلك سوءًا الانفجار السكاني الذي حدث بين اليهود؛ إذ زاد عددهم آنذاك على ستة أضعاف أو أكثر؛ مما أدى إلى تداعي وحدة اليهود وخصوصيتهم واختفاء لغتهم الييديشية واندماج تلك الجماعات اليهودية في مجتمعات أخرى؛ مما اضطرت أعدادًا كبيرة من اليهود إلى الهجرة إلى أوروبا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا وإلى الأرجنتين وكندا وإلى جنوب إفريقيا، ثم إلى الولايات المتحدة التي كانت لها الحصة الكبيرة في استقبال الجماعات اليهودية. وقد أدت هذه الهجرات إلى حدوث رد فعل عنصرية في ألمانيا وفرنسا وإنكلترا؛ الأمر الذي أدى إلى طرح الفكرة الصهيونية في إنكلترا ثم بقية دول غرب أوروبا.

وعلى الرغم من توافر فرص العمل للمهاجرين من اليهود في معظم البلاد التي هاجروا إليها إلا أن ذلك لا يعني

اندماجهم وانسجامهم مع المجتمعات المضيفة لهم؛ لما يمتازون به من أساليب غريبة عن المجتمعات وتصرفات تُحدث في المدن التي يعيشونها أزمات اجتماعية واقتصادية وربما سياسية؛ لذلك فإن ردود الفعل العنصري ضد هؤلاء المهاجرين قد تنامى كثيرًا، وولد الأزمات المتتالية للجاليات اليهودية، مما أدى إلى فكرة تجميع اليهود في وطن قومي ينشؤون به عن المجتمعات الكبيرة التي أصبحت ترفضهم وتضيق عليهم سبل العيش[1].

أما في الولايات المتحدة التي لجأ إليها الملايين فكانت توجد أمام المهاجرين من اليهود مجالات العمل أوسع من غيرها؛ لذلك لم تحدث توترات اجتماعية كما حدثت في باقي الدول[2]؛

---

(١) المسيري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٣.

(٢) «كان أول اتصال رسمي بين الطوائف اليهودية وحكومة أمريكية في عام ١٧٩٠ بعد عام واحد من انتخاب جورج واشنطن رئيسًا للجمهورية الجديدة؛ ففي أغسطس عام ١٧٩٠ وفي أثناء زيارة قام بها واشنطن إلى نيويورك بولاية رود إيلنر كتب الرئيس خطابًا لأعضاء المعبد اليهودي بالولاية متميزًا بالدفء والفصاحة، وحتى يومنا هذا لا زال خطاب واشنطن يُدرس في المدارس الدينية كمنهج تأسيسي لحرية يهود الولايات المتحدة.

قال واشنطن في خطابه: «إن حكمة الولايات المتحدة الأمريكية التي لا تفرض العقوبات على المتعصبين لديهم، والتي لا تساعد على استمرار الاضطهاد، وتطلب من هؤلاء الذين يعيشون تحت حمايتها أن يكونوا مواطنين صالحين يتمتعون بتأييدها ودعمها في كل الظروف، وقد أرسى هذا الخطاب النغمة الأساسية لطبيعة العلاقات المستقبلية بين خطابًا لليهود في أمريكا. وربما كان واشنطن أول رئيس دولة غربي يوجه خطابًا لليهود باعتبارهم مواطنين أحرارًا ومتساوين مع الآخرين.. وقد أثر هذا الخطاب على حياة يهود أمريكا بطرق عديدة، حيث لم يكن هذا الخطاب الرصيد الذي أرسله واشنطن لليهود، وإنما واحد من ثلاثة خطابات أرسلها ليهود =

مما ساعد اليهود على الاندماج في المجتمعات الأمريكية، ومهد لهم تأسيس الجمعيات والحركات المبنية على أصول العقيدة اليهودية مثل: (حركة التنوير)، و(اليهودية الإصلاحية)، و(علم اليهودية)، و(الحركة الصهيونية)، وبما أن قادة و زعماء هذه الحركات كانوا في البداية من أصول ألمانية إلا أن هذه القيادة والزعامة انتقلت بأيدي اليهود الذين قدموا من أوروبا الشرقية ووسطها.

يقول عبد الوهاب المسيري: «أدى الغزو التتري إلى تدمير بولندا تمامًا في عام ١٢٤١م، كما قام اللتوانيون والوثنيون بالغارة عليها، وفقدت بولندا كثيرًا من أراضيها، لكنها استعادت وحدتها مع مطلع القرن الثالث عشر، ولدى استعادة حكمها ودستورها استطاعت أن تجمع مدنها التي ضمت الأرثوذكس واليهود والأرمن والتتر والمسلمين، وتطورت بولندا إلى أربعة أضعاف حجمها عندما اتحدت مع لتوانيا، وجدير بالذكر أن اليهود كانت لهم طلائعهم في بولندا منذ القرن التاسع الميلادي،

= أمريكا في ذلك العام. والسبب في ذلك هو السياسة الكلاسيكية لليهود، حيث بعد وقت قصير من انتخاب واشنطن في إبريل ١٧٩٠ قرر رؤساء المعابد اليهودية الأمريكية وعددها خمسة أن يبعثوا خطاب تهنئة للرئيس، وهو امر تتبعه الكنائس الأمريكية، ولكن اليهود قضوا عامًا ونصف العام يتجادلون حول نقطة واحدة وهي من الذي سيوقع الخطاب؟ وانتهى الأمر بأن يبعثوا بثلاث رسائل منفصلة». راجع بذلك: جوناثان جولد بيرج، قوة اليهود في أمريكا، ترجمة: نهال الشريف، دار الهلال، بلا مكان طبع، ١٩٩٧، ص ٩٧ – ٩٨.

ويذهب آرثر كيستلر إلى أن هؤلاء اليهود هم من الخزر، وكانوا يمارسون التجارة، وقد ازداد عددهم بشكل كبير بعد الغزوات المغولية التي أدت إلى سقوط الخزر ودولتهم، واستغل اليهود تشجيع السلطات البولندية في إعمار البلاد؛ فكان نشاطهم في ذلك ظاهر في التجارة والمرابأة؛ فضلًا عن قدوم جماعات يهودية من أوروبا الغربية بسبب تدني حالة المعيشة هناك، مما دفع بالسلطات البولندية إلى إصدار ميثاق لتنظيم الأحوال القانونية لليهود وتحديد مجالات أعمالهم وتنظيم علاقات مع المجتمع المسيحي[1].

كما أن هذا الميثاق توسع ليعطي لليهود حقوقًا أوسع وينظم شؤونهم التجارية والضريبية، ونص كذلك على إعفائهم من الخدمة العسكرية مقابل رسوم يدفعونها أو أن يزودوا الجنود بالمؤن أيام الحروب، ولما كانت السلطة على اليهود بيد الملك حصرًا فإن ذلك قد أعطى لليهود حظًّا وافرًا للتقرب من البلاط الملكي من جهة وعدم تأثير السلطات التنفيذية عليهم من جهة أخرى، إذ كان الملك هو (قاضي اليهود) حصرًا، فكانت لهم الفرصة الذهبية بامتلاك الأراضي الزراعية والضياع، وسيطروا على التجارة الداخلية والخارجية ومنابع المال، وكانت الوظائف المهمة كالضرائب والرسوم تحت تصرفهم، كما أن

(١) بيتي، مصدر سبق ذكره، ص٣٣.

الإقراض بالربا كان من أهم وظائفهم إلى أن تحولوا إلى كتلة قوية في المجتمع البولندي لها تأثيرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، حيث أثروا مباشرة على مناحي الحياة لدى الشعب البولندي الذي حاول بدوره تحجيم هذا النشاط اليهودي مستعينًا بالحكومة التي قامت بدورها بالتدخل في عملية توسيع بناء المدن اليهودية، وجعل الكنسية بمنأى عن هذه الممارسات، فقد طالبت بعزل اليهود عن المجتمع المسيحي، وحدثت بعض الممارسات ضد التجار اليهود تمثلت بهجمات على أحيائهم السكنية، ومحالهم التجارية.

وفي هذه المدة ظهرت طبقة النبلاء البولنديين التي استطاعت السيطرة على الحياة السياسية، وقد ارتبط بها اليهود ارتباطًا كاملاً؛ ولأن اليهود كان ارتباطهم بالطبقة الحاكمة فإن علاقتهم بالنبلاء غالبًا ما تتسم بالعدائية، لاسيما أن هناك أكثر ستين منظمة أو جماعة يهودية في بولندا، وهؤلاء الجماعات قد تحسن وضعهم أيام اعتلاء الملك (ألكسندر) عرش بولندا الذي دعا إلى التعددية والتسامح من خلال تشريعاته، وكان أعضاء الجماعات اليهودية يعتمدون اعتمادًا كاملاً على الملك، ويحصلون منه على الامتيازات والحماية؛ مما أدى إلى توتر العلاقات بين اليهود والكنيسة مرة أخرى، وبعد وفاة الملك ألكسندر وتحول بولندا إلى جمهورية ملكية يُنتخبُ

فيها الملك انتخابًا ضمن برلمان يضم النبلاء كافة، صارت أمور البلاد الاقتصادية والإقطاعيه بيد النبلاء، مما ساعد على ظهور الملكيات المطلقة في أوروبا التي أسست حكومات مركزية قوية تعد نواة الدولة القومية الحديثة، وهذه الحكومات اهتمت بالتجارة المحلية والدولية وشجعتها فيما يُعد تعبيرًا عن الثورة التجارية التي خرجت من رحمها حركات الاكتشاف والاستعمار من إسبانيا والبرتغال، ثم إنكلترا وهولندا وفرنسا، الأمر الذي حوَّل طريق التجارة، وجعل الدول الأطلسية مراكز للتجارة العالمية، وقد أدى ذلك الى اضمحلال المدن البولندية في بادئ الأمر ثم إلى اضمحلال بولندا نفسها.

وازدادت الدول المحيطة ببولندا قوة في تلك الحقبة أيضًا، كما كانت هناك السويد والإمبراطورية النمساوية التي كان لها أطماع في الأراضي البولندية، ولكن بزوغ نجم روسيا من ناحية وتعاظم القوة الروسية من ناحية أخرى، كانا العنصر الحاسم في مسار التاريخ البولندي، إذ إن التفكك الذي أصاب بولندا كان يقابله تزايد في تماسك الكتل السياسية المحيطة وتعاظم قوتها؛ لذا لم يكن من الغريب أن يتم تقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن عشر وأن تختفي تمامًا كيانًا سياسيًّا مستقلًّا خلال القرن التاسع عشر كله.

وتستمر الأوضاع في بولندا مرة لصالح الجماعات اليهودية، وأخرى عكس ذلك؛ والسبب الذي توضح لنا من خلال دراسة الأوضاع العامه للدولة والخاصة لليهود هو أن الحكومات البولندية عندما يصل بها الحال إلى الضعف تلجأ إلى معونة أصحاب المال في بناء مؤسساتها وفي دعم البنية التحتيه للبلد، ولما كان أصحاب المال من اليهود فمما لاشك فيه أن تصرفاتهم وممارساتهم ستكون وفقًا للطبع اليهودي المعروف الذي سبق أن توضح لنا من خلال الصفحات آنفة الذكر.

إن أصحاب المال اليهود لن يتخلوا عن الطرائق الملتوية والأساليب الربوية الجشعة التي لم تلبث أن تستولي على الأماكن الاقتصادية الحساسة وخطوط التجارة الداخلية والخارجية؛ مما يسبب سخط الشعوب البولندية، وانعكاس ذلك السخط على الحكومة، فتضطر إلى إصدار تشريعات تحدد حركة وممارسات الجماعات اليهودية؛ بل وأحيانًا كثيرةً تقوم بمصادرة أموال اليهود بطرائق أو بأخرى.

إن استمرار سيطرة اليهود على الاقتصاد البولندي أدى إلى تحطمه تحطمًا كاملًا؛ مسببًا انخفاض مستوى المعيشة للمواطن البولندي إلى أقل ما يمكن، وتدهور أحوال المدن بشكل ليس له مثيل، فضلًا عن حدوث أسوأ تضخم في تاريخ بولندا، ناهيك عن انخفاض عدد السكان إلى النصف، مما دفع

البلاد إلى الدخول في مواجهات عرقية وطائفية إلى الحرب التي اندلعت بين روسيا وبولندا عام ١٧٠٩م، والتي خسرت فيها بولندا.

على أثر هذا تدهورت أحوال اليهود تدهورًا لم يحصل لهم من قبل، وظهرت بينهم (الرؤى القبالية)، والنزعات (الشبتانية)[١]. وقد زاد الصراع بين أعضاء الجماعات

(١) الشبتانية نسبة إلى الحاخام اليهودي شبتاي زيقي الذي ادعى أنه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر؛ إذ شاعت تلك الأيام شائعات أن المسيح سيظهر ١٦٤٨ كي يقود اليهود في صورة المسيح، وأنه سوف يحكم العالم من فلسطين، ويجعل القدس عاصمة للدولة اليهودية المزعومة، وقد ولد شبتاي أو سبتاي من أب يدعى مردخاي زيقي من يهود إسبانيا، وكان شبتاي متميزًا بالذكاء وسرعة البديهية، فضلًا عن معرفته لقواعد الدين وأصوله، كان مؤمنًا بالتصوف اليهودي القبالي، وقد سافر هذا إلى مصر والتقى باليهودي روفائيل جوزيف وكسبه إلى جانبه لدعمه ماديًّا، وأخذ ينتقل بين القدس وأزمير، ويلتقي بأتباعه وبالوفود اليهودية التي تأتي من أدرنة واليونان وألمانيا، وكان يردد قوله: «أنا سليل سليمان بن داود حكام البشر، وأعتبر القدس قصرًا لي»، وجعل اسمه مكان اسم السلطان محمد الرابع في الخطب التي تلقى في الكنيس، ولم تهتم الدولة العثمانية بدعوة سبتاي للتسامح الديني وحرية الاعتقاد، فضلًا عن استقلالية اليهود بأمورها وشؤونها، و قد استطاع سبتاي أن يقدم لليهود الكثير في تلك الحقبة، إذ يقول الكاتب اليهود افرام غالايتي: «إن سبتاي قد أنقذ اليهود من المصائب والاضطهادات بهذه الطريقة، وأخيرًا نتيجة لنشاط سبتاي وتحركاته التي أزعجت الدولة العثمانية تم اعتقاله والتحقيق معه بالتهم التي أنكرها، وسجن في (زندان قابي)، ثم نقل إلى سجن (جناق القلعة)، ثم عرض عليه الإسلام فأسلم وغير اسمه إلى محمد عزيز أفندي، واستطاع أن يقنع الدول العثمانية بإطلاق سراحه والسماح له بالدعوة، مستغلًا ذلك بالدعوة إلى إبطال اليهودية وإعلان الإسلام، وهكذا بقيت دعوته تزداد وتتسع ويكثر أتباعه وأنصاره الذين استمروا على نهجه وتعاليمه حتى بعد وفاته في تشرين الأول عام ١٦٧٦. راجع ذلك: النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩ – ٤٢. والنعيمي، الدور السياسي ليهود الدونمة في تركيا، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥ – ٤٠.

اليهوديـة والبرجوازيـة البولندية الذي تعمق إلـى درجة صعب حلهـا، إلا أن وقـوف اليهـود إلى جانـب البولنديـين في الحرب الروسية أدى بالبولنديين إلى إعادة أعضاء الجماعات اليهودية إلى جانب البولنديين في الحرب الروسية؛ مما أدى بالبولنديين إلـى إعـادة النظـر في مصـير اليهود، ودمـج الجيـوب الإثنية والدينية المختلفة في التشكيلات القومية، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح لسببين رئيسين هما:

- **أولًا**: الاختـلاف الثقـافي بـين الشريحتـين البولنديـة واليهودية؛ إذ إن اليهود شعب انعزالي منغلق على نفسه في مدن صغـيرة؛ معزولاً عن الحضـارة القومية، بعيدا ً عـن الاحتكاك مع المجتمعات الأخـرى، وغالباً ما يتأثر بـأي ثقافة تعارض ثقافته اليهودية ومعتقداته التلمودية الممزوجة بالخرافات والأساطير الشعبية.

- **ثانيًا**: مـيراث الجماعـات اليهوديـة المتمثـل بالعـداء التقليـدي مع جميع طبقات المجتمـع وما يحمله المجتمع البولنـدي حيـال اليهود من نظـرة سلبيـة فيما يخص ممارسات اليهود الاقتصادية.

يمكننـا أن نستخلص مما تقدم إن أدوار اليهود المهاجرين إلـى بولنـدا من مملكـة الخـزر المنهارة قد جـرَّت بولنـدا إلى

نهاية مؤلمة فيما يخص شعوبها الأصليين؛ إذ لم تجد الشعوب البولونية استقرارًا سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو حتى اجتماعيًّا منذ اليوم الأول الذي وصلت إليه طلائع اليهود المهاجرة، والشاهد على ذلك ما ورد في دراستنا هذه التي اتسمت بأوضاع متباينة مرت بها بولندا بحروب وأزمات سياسية مع جاراتها اللواتي لم يدخرن جهدًا في استغلال تلك الأوضاع الداخلية، فراحت تقتسم أراضي هذه المملكة أربع مرات فيما بين عام ١٧٧٢ وعام ١٨١٥م؛ فكان التقسيم الأول عام ١٧٧٢، والتقسيم الثاني ١٧٩٣، والتقسيم الثالث ١٧٩٥، والتقسيم الرابع ١٨١٥، وبهذا فقد توزع يهود بولندا تبعًا للأراضي المقسمة، حيث كانو يسكنونها، والجدير بالذكر أن اليهود في روسيا والنمسا وبروسيا كان لهم اليد الطولى في السياسة الخارجية اتجاه تقسيم بولندا، وكان ما حصل ضمن مخططات يهودية تصب في بوتقة واحدة هي االسيطرة على العالم[1]؛ لذلك نرى أن يهود بولندا

(١) يقول صابر طعيمة في كتابه (تاريخ اليهود العام): «ومنذ عام (٩٢٠م) إلى منذ حوالي سبع مئة عام تقريباً طارد الإنكليز في بلادهم الجماعة اليهودية الإنجليزية، تبعتها فرنسا في ذلك، وأدركت باقي دول أوروبا الوسطى وشعوبها خطر اليهود عليهم باعتبارهم فئة قليلة رجالية منبوذة تعمل في السر، وتكتم أمور حياتها العامة، وتعزل عن خدمة الجماعات التي تعيش فيها. واضطرت الجماعات اليهودية أن تتجه صوب الشمال الشرقي لأوروبا إلى ألمانيا الشرقية وبولندا وغيرها، ولقد كان في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي المرحلة العليا للإدراك الكامل عند شعوب إسبانيا والبرتغال، حيث أدركوا خطر اليهود عليهم ومحاولتهم السيطرة والتسلط. ولقد رأى المسيحيون في اليهود معاول هدم للمجتمع المسيحي من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في الوقت الذي ابتدأت الجامعات اليهودية تتداول فيما =

قد ضُم أغلبيتهم إلى النمسا وبروسيا وروسيا، وهناك عُوملوا معاملة خاصة كمهاجرين جدد جرت عليهم محاولات الترويس في روسيا، ومحاولات الدمج في النمسا، ومحاولات التحديث في بروسيا.

ومن المفيد هنا أن نذكر كتابًا لأحد الأساقفة البولنديين وهو المفكر الألماني اليهودي ديفيد فريد لينذ يسأله عن أفضل السبل لإصلاح (أي تحديث) يهود بولندا، فاقترحَ عليه بضرورة تدريب اليهود على الحياة المتحضرة قبل إعطائهم حقوقهم

= بينها كيف تنظم العداء للمسيحية على ضوء تعاليم التلمود، ثم إن الاوربيين صاروا يرون بأعينهم بيوت المسيحيين تنهار دعائمها بفعل الربا الفاحش الذي ارتبط باسم اليهودي؛ بل وأضحى عنوانًا له تجسيمًا لشخصه، ولقد كان للسيطرة الاقتصادية ومنح الحياة الاجتمعاية الأوربية دافعًا لمواجهة اليهود بأساليب شتى تتمثل بحصرهم وملاحقتهم ومراقبة أعمالهم وحركاتهم في مناطق سكناهم. ولقد تعرض اليهود في أوروبا إلى كبت وحملات عنيفة نتجت جراء الكبت والحقد الذي يحمله المسيحيون لليهود جراء ممارساتها؛ ففي عامي (١٣٤٨ – ١٣٤٩) راج بين المسيحيين أن قتل اليهود يقرب إلى الله، وفي (١٤٠١) أصدر الملك (روبرشت) قرارًا بطرد جميع اليهود من إقليمي الراين و بافاريا، كما أصدر قرارًا يوجب على اليهود أن يرتدو لباسهم الخاص الذي يميزهم عن غيرهم، وفي ترنيت بإيطاليا حدثت مذبحة لليهود إثر قتل طفل لم يتجاوز الثانية من عمره، ثم انتقلت المذابح إلى ألمانيا عندما تعرض اليهود في مدينة (ريجنزبرج) إلى أكبر مجزرة في عام (١٤٧٦م)، وفي عام (١٤٩٩م) قام القيصر مكميلان الأول بطرد اليهود من مدينة (نورنبرج)، ثم تعرض اليهود إلى مطاردة تراثهم الثقافي وحرق كتبهم ومؤلفاتهم، أما في المدن البروتستانتية فقد تعرض اليهود أيضًا إلى حالات من الاضطهاد والطرد على يد الأمير (يوحنا فريدريش) عام (١٥٣٦م). راجع: طعمة، صابر،ت اريخ اليهود العام، ص٢، دار الجيل، ١٩٧٥، ص٥٠-٥٥.

المدنية، وبالفعل تأسست مدرسة حاخامية حديثة تناولت مناحي عديدة من أمور الحياة.

إلا أن ذلك لم يحظَ بنجاح على مستوى الجماعات اليهودية بسبب عدم ثقة البرجوازية البولندية بهم، فضلاً عن ظهور أحزاب قومية شعبية بولندية أعلنت الحرب ضد دمج اليهود وضد اتجاهاتهم الصهيونية التي ظهرت عقب الانفجار السكاني عندهم (اليهود)، ولا سيما في بولندا؛ إذ يمكن القول بأن كل الجماعات اليهودية التي ظهرت في الغرب في القرنين الأخيرين هي من فروع بولندا، وفي ذلك قال هتلر: «إن الجيب اليهودي في بولندا هي المستودع الذي يصدر الفائض البشري اليهودي، وإنه يشكل البنية التحتية البيولوجية لليهودية العالمية»[1].

أما عن الوضع النهائي لليهود في بولندا فيقول هشام الدجاني في كتابه اليهود والصهيونية: «كانت بولندا إلى وقت قصير تُعَدُّ واحداً من أكبر مراكز تجمع الطائفة اليهودية في أوروبا الشرقية، وقد بقيت كذلك إلى أواخر الحرب العالمية الثانية تقريبًا، وكان عدد يهود بولندا يقدر في بداية الأربعينيات بما يزيد عن ربع مليون نسمة، ولكن هذا العدد أخذ يتناقص تدريجيًّا خلال سنوات الحرب والاضطهاد النازي، ويقدر

(١) الدجاني، هشام اليهودية والصهيونية، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ١٩٥، ص ١٠٣ – ١٠٥.

عـدد اليهود الذين هاجـرو أو هُجِّروا من بولندا أو من مخيمات اللاجئـين التـي نزحوا إليهـا في أوروبـا الغربية خـلال الحقبة ١٩٤٥– ١٩٤٩م بما يقارب المئتي ألف نسمة، ويبدو أن الحكومة الاشتراكيـة التـي قامت في بولنـدا بعد تحريرهـا لم تقفل باب الهجرة أمام اليهود، وعلى الرغم من مناداتها بانصهار اليهود في الحيـاة العامة إلا أن معظم هـؤلاء كان يفضل الهجرة خشية استمـرار (اللاسامية)[1] اليهود في الحياة العامة، إلا أن معظم هـؤلاء كان يفضل الهجرة خشية استمـرار (اللاسامية)، وبعد اطمئنانه للحكم البولندي الجديد.

---

(١) اللاساميـة: معناها اليهود الذيـن ليسو من بني إسرائيل، وهم الصهاينة، ويشكلون ٩٢٪ مـن يهـود العـالم، ويسمون الأشكنـازم؛ أي يهود غـير ساميـين حسبما تقول المصـادر اليهودية. راجع: الموسوعـة اليهودية وموسوعة يـبرز، و كتاب أحجار على رقعـة الشطرنج لوليام غـاي كار... فقد توافدت في القرن الميلادي الأول مجموعات مـن العروق التركية المغوليـة والقنلاوية إلـى أوروبا قادمة من آسيـا عبر الأراضي الواقعة شمالي بحر قزوين والبحر الأسود، مملكة قوية عرفت بمملكة الخزر؛ ولذلك كان بحـر قزوين يسمى بحر (بحـر الخزر)، وكان الخزر وثنيـين متساهلين دينيًّا؛ ففضلـو اليهودية الممزقة علـى باقي الديانات، وقد تمكن السلاف بعد حروب طويلة مـن القضاء على دولة الخزر عام (٩٦٥م)، وقد تفـرق الخزر اليهود إلى جماعات صغـيرة حاقدة عاشـت داخل المجتمع الروسي، و كانـوا وراء معظم عمليات الشغب والاغتيـالات السياسية في أوروبا وروسيا، وانتشر قسم منهم في أوروبا وانطلقوا إلى معظـم العالم، ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية، وهؤلاء اليهود هم الذين يفدون إلـى فلسطين اليوم، ويدَّعون فيها حقًّا تاريخيًّا مكتسبًا، علمًا بأن الساميين أنفسهم لم يحكموا فلسطين يومًـا واحدًا، فكيف اللاساميون!؟راجع: فيتش شيريب، حكومة العـالم الخفية، ط١٠، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١٠، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ص ١٨–١٩.

ويمكن القول: إن الجماعات اليهودية البولندية الكبيرة قد استنزفت خلال سنوات قليلة؛ إذ لم يبق في نهاية العام ١٩٤٧ إلا ما يتراوح بين سبعين إلى تسعين ألفًا، وقد دفع هذا الحكومة البولندية إلى إصدار قرارها بمنع الهجرة، ولكن المنظمات الصهيونية التي ظل لها نفوذها بالرغم من قيام الحكومة الاشتراكية عام ١٩٤٨ استطاعت أن تضغط على الحكومة لفتح أبواب الهجرة من جديد أمام يهود بولونيا وإلى إسرائيل بالذات؛ فهاجر خلال عامي ١٩٤٩ – ١٩٥٠ نحو ثلاثين ألف يهودي، وتقدر السلطات البولونية أن معظم هؤلاء كانوا ينتمون إلى أحزاب صهيونية، وقد جاء في تصريح رسمي بولوني يوم ١٩٤٩/١٢/٧: «من الواضح أن الذين يسجلون أسماءهم ويغادرون البلاد إلى إسرائيل هم في معظمهم مرتبطون عقائديًّا بالحركة الصهيونية»[١].

وفي عام ١٩٥٠ أغلقت أبواب الهجرة من جديد، وكان عدد يهود بولونيا قد تقلص إلى قرابة خمسين ألفًا، ويبدو أن هؤلاء لم يستطيعوا التكيف مع النظام الاشتراكي الجديد، أو أن النظام أخفق في اجتذابهم ودمجهم في عجلته، إذ ما كانت حكومة غومولكا تفتح أبواب الهجرة مجددًا عام ١٩٥٦ لأسباب تتعلق بضغوط صهيونية خارجية حتى غادر بولونيا قرابة خمسة

(١) الشمالي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤ – ٣٠.

وثلاثين ألف يهودي بولوني؛ توجه معظمهم إلى إسرائيل، وذلك خلال عامي ١٩٥٧-١٩٥٨.

وفي نهاية عام ١٩٥٨ أغلق باب الهجرة ولم يفتح من جديد إلا في أعقاب حزيران ١٩٦٧ وعلى نطاق ضيق وسري فيما يبدو، إذ ذكرت المصادر الغربية أن ثلاثة عشر ألف يهودي بولوني توجهوا خلال ١٩٦٨ إلى فيينا، إذ قامت المنظمات الصهيونية بترتيب عمليات توجههم إلى إسرائيل، أما الحكومة البولونية فقد اعترفت بهجرة خمسة آلاف يهودي بولوني فقط.

ويقدر عدد يهود بولونيا اليوم بما يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفًا، ويستفاد من المعلومات المستقاة عن أوضاعهم الحالية أن معظمهم لا يتعاطف مع النظام الاشتراكي القائم، بل إن عددًا كبيرًا يعمل منهم في المنظمات ذات النشاطات المناوئة سرًّا للحكم مثل جماعة (كور) وغيرها[1].

رابعًا: اليهود في أوروبا

لقد تعرضت الجماعات اليهودية في أوروبا لاضطهادات متعددة مع بداية الحملات الصليبية، وإن اقترانها بتاريخ بداية تلك الحملات واضح المغزى. قبيل نهاية القرن الحادي عشر

(١) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢ – ١٠٤.

إذ نجت الجماعات اليهودية في ألمانيا بصعوبة بالغة من الإبادة الكاملة عبر تلك الانتفاضات الغوغائية، الهستيرية، التي مهدت للحملة الصليبية عام ١٠٩٦م ورافقتها وحتى تاريخ الحملة الصليبية الأخرى، وفي عام ١١٤٧م، والحملات التي تلتها صار روتينيًّا أن تبدأ الحملات باجتياح الجماعات اليهودية، فمن كان يستطيع أن يتصور في ذلك التاريخ أن ضحايا الحملات الصليبية من اليهود سوف يصبحون فيما بعد أدوات لحملات مشابهة تتخفى تحت أسماء وذرائع أخرى، لتحقيق الهدف نفسه وهو اغتصاب فلسطين والعدوان على العرب. في عهد الملك فيليب (الجميل) كانت فرنسا قد عانت من أزمة اقتصادية خانقة، انهارت فيها قيمة العملة، ونشبت الاضطرابات الاجتماعية، فحاول فيليب معالجتها بالطريقة المألوفة وهي استنزاف اليهود، فحصل منهم على دفعات نقدية قوامها مئة ألف جنيه عام ١٢٩٢م، ومئتين وخمسة عشر ألف جنيه عام ١٩٢٥م، ثم استقر رأيه على علاج حاسم، فوقع في ٢١ /حزيران ١٣٠٦م على قرار سري يقضي بالقبض على جميع اليهود بالمملكة في يوم محدد ومصادرة ممتلكاتهم ثم طردهم خارج البلاد[١].

وهكذا في القرن الرابع عشر أصبحت فرنسا كما كانت إنكلترا خالية من اليهود تمامًا، ولقد كانت لدى ملوك أوروبا

(١) الشمالي، نصر، وهشام الدجاني، الظروف التاريخية للهجرات اليهودية، ص ٣٣.

دائمًـا وسائل عديدة لاستخراج المـال من عبيدهم اليهود؛ منها التوقيفـات الجماعية؛ إذ كانو يسجنون فـلا يطلق سراحهم إلا بعـد دفع مبالـغ طائلة، ففي النمسا عـام ١٣٧٩م سجن الأمراء النمساويـون جميع اليهـود الخاضعين لحكمهـم ولم يحرروهم إلا بعـد أن أخـذوا منهم مبالـغ طائلة، وقد مهـد أولئك الأمراء لعمليتهـم بتحريضـ الفلاحين منذ عـام ١٣٧٨م ليجبروهم في النهايـة وبعـد التوقيف علـى دفع مبلـغ ستة عشر ألـف مارك، لقـد كان البارون في أوروبا عندمـا يتحدث عن ممتلكاته: هؤلاء اليهود لي!

وبالفعل فقد انتشرت عمليات العقود بشأن اليهود بصفتهم ممتلـكات خاصةً في القرن الثالث عشر، وبدلًا من إقامة دعاوى طويلـة تعاهد الأمراء والملوك على تسليـم اليهود الذين يلجؤون إلى أراضيهـم، ونص عقد مشابه عام ١٢٥٠م بأنه يجوز للملك والأمـراء المحافظة على حقوقهم، وبالنسبة لليهود هم كالعبيد، وفيمـا بعد أصبح اليهود كأنهـم في سوق المزاد، وقد ابتاع فيليب الثاني من أخيه كونت دي فالو جميع يهود كونتيته[1].

وعلـى صعيـد آخـر كان ممنوعًـا علـى اليهـود في أوروبا الإقطاعية التحول إلى الدين المسيحي، وقد سنَّ الملك الإنكليزي

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤، وطعيمة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

هنري الثاني قانونًا يقضي بضم أملاك اليهود الذين يعتنقون المسيحية إلى ممتلكات التاج؛ لتعويض الخسائر التي كان يلحقها اليهود بالملك في حال تحولهم إلى المسيحية، وإن في هذا دليل آخر على أن الموقف من اليهود إيجابًا أو سلبًا لم يكن متعلقًا بدينهم وإنما بوظائفهم الاقتصادية، ثم إن أوروبا والولايات المتحدة تحولت جميعها إلى اليهودية بهذا المعنى الاقتصادي.

غير أن أوروبا الغربية أصبحت بكاملها نظيفة من اليهود تمامًا ابتداءً من منتصف القرن الرابع عشر ولمدة قرنين، أي حتى منتصف القرن السادس عشر تقريبًا، أما سبب ذلك فهو الطاعون الأسود الذي اجتاح أوروبا بين عامي ١٣٤٨ - ١٣٥٠م الذي قضى على ثلث السكان في بعض المناطق، وعلى ثلثيهم في مناطق أخرى، وقد تحمل اليهود مسؤولية تلك الكارثة الطبيعية، فاتهموا بتسميم الآبار لنشر الطاعون الأسود، وسرت هذه الإشاعة بسرعة خرافية ترتب عليها إحراق عدد كبير من اليهود وفرار الأعداد الأخرى.

ونعود إلى يهود ما قبل الطاعون الأسود لنرى أن المرابين اليهود الذين كانوا في تلك الحقبة من تاريخ أوروبا الإقطاعية مصدر دعم قوي للملكية المطلقة في صراعها ضد النبلاء في كثير من الأحيان، فقد مكن اليهود الملوك في بادئ الأمر من

تجهيز جيوش المرتزقة الباهظة التكاليف، والتي بدأت تحل محل جماعات النبلاء المسلحة غير المنظمة؛ ولذلك أعدَّ محفل النبلاء في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ثلاثة مطالب قدمها إلى الملك وهي:

١- تنظيم عمليات الديون اليهودية والحد من حجم الفائدة التي يفرضها المرابون.

٢- حرمان اليهود من حقهم في وراثة الأراضي.

٣- إصلاح الإدارة المالية وعزل الموظفين والوكلاء اليهود.

وقد عُمِّمت مطالب النبلاء هذه على جميع البلدان الأوروبية، ووصلت أصداؤها إلى بولونيا التي طالب نبلاؤها أيضًا بالحد من مجموع فائدة الربا، وبضمان أملاكهم وبعزل اليهود من وظائف الدولة[1].

خامسًا: يهود روسيا

لقد رأينا كيف أصبح اليهود في بولونيا مجتمعًا غير مرغوب فيه، وكيف أصبحت الشعوب البولونية تطالب بإبعاد اليهود وإقصائهم في أعمالهم وفي محل سكناهم لما أوصلوا البلاد من حالات التردي والانحدار، وما أحدثوه في اقتصادها من تدهور

(١) طعيمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

نتيجة ممارساتهم التجارية والمالية، ولم يكن الحال في روسيا بأفضل من ذلك؛ بل إن الروس رفضوا في بداية الأمر دخول اليهود المهاجرين عقب سقوط دولتهم إلى أراضيهم؛ لما كانوا يعرفونه من سلوك الجاليات اليهودية الموجودة في أراضيها والتي هاجرت واستقرت في روسيا كغيرها من البلدان.

لكن الذي حدث من توسع أركان دوقية موسكو وما قابلها مع تردي أوضاع الإمبراطورية البولونية، استطاعت السلطة القيصرية أن تضم أجزاء من أراضي الإمبراطورية البولونية إلى أراضيها، وتلك الأراضي كانت تضم أعدادًا كبيرة من اليهود الذين يقطنون فيها، وعلى الرغم من عداء الروس وكرههم لليهود، فإنهم قد سمحوا لهم بالبقاء في أماكنهم وفي مدنهم، وهؤلاء هم الذين شكلوا التجمعات اليهودية الكبيرة في روسيا؛ إذ كانوا يمثلون كبار التجار في تلك المدن[1].

وفي كتابه الستار الحديدي حول أمريكا يقول جون بيتي: «وحدث في العصور الوسطى أن قامت قبائل الفايكينغ القادمة من مناطق بحر البلطيق بغزو التلال المنخفضة الواقعة غرب موسكو، ثم انتشرت في معظم الأجزاء القريبة من هذه المنطقة، ولم يكن هؤلاء المهاجرون الذين وفدوا من الشمال والغرب إلا

(١) بيتي، جون، الستار الصهيوني حول أمريكا، مطبعة الوعي القومي، دار النشر للجامعيين، بيروت، لبنان، بلا سنة طبع، ص ١٨-٢٠.

الشعب الروسي الذي تنتسب قبائله إلى السويديين والإنكليز والنورمنديين الذين كونوا مع القبائل السلافية المحلية الدولة التي عرفت فيما بعد باسم دولة روسيا، ولقد ضمت هذه الدولة إلى أملاكها الأراضي التي تحيط بأعالي الفولغا والدينبر، ووصلت عن طريق هذا النهر إلى البحر الأسود، وكان الروس والسلاف إذن عنصرين متقاربَيْن في الأصل وإن اختلفت لغتهما، وقد اعتنقوا المسيحية دينًا لهم على يد البعثات التبشيرية الأورثوذكسية اليونانية، والمعروف أن العنصر السلافي استطاع أن يمتص العنصر الروسي، وأن يكون وإياه شعبًا متحدًا، شرع هذا الشعب المتحد الجديد في توسيع حدوده.

فأخذ من الخزر مدينة (كييف) وجعل منها عاصمة لأسرة مالكة مستنيرة تتطلع إلى الغرب وتصاهر ملوكه وخاصة ملوك فرنسا، وظلت الحرب مستعرة بين ملوك السلاف وبين الخزر حتى تمكنوا من القضاء على ملكهم واغتصبوا الكثير من أملاكهم؛ فاتسعت الممالك السلافية في بولندا وليتوانيا ودوقية موسكو وغيرها، واضطر الخزر إلى الهجرة إلى مواطن الشعوب السلافية للإقامة بينها، إلا أن الروس من أهالي مدينة كييف ودوقية موسكو قد حالوا من دون تسرب اليهود والاختلاط بهم، ومنذ ذلك الوقت وسياسة الحكومة الروسية تقضي بإبعاد

اليهود عن أراضيهم[1]، لكن الجماعات اليهودية استطاعت توطيد أركانها في روسيا بعد أن كان مجرد دخول التجار اليهود إلى روسيا بتجارتهم أمرًا ترفضه القيصرية الروسية، يقول المؤرخ الروسي سولوفيوف واصفًا موقف القيصر بطرس الأكبر: «بينما كان يقوم بدعوة الأجانب المهرة من كافة البقاع فقد استثنى اليهود من تلك الدعوة، وكان يقول بأنه يُفضل ألف مرة أن يرى المحمديين (المسلمين) والوثنيين في هذه الأراضي على أن يرى اليهود؛ لأنهم أنذال وغشاشون»[2].

---

(١) بيتي، جون، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص١٩.

(٢) قلفاط، نخلة، بطرس الكبير، المطبعة اللبنانية، ١٨٨٦م، ص٣٥-٣٨، وحجاوي، مصدر سبق ذكره، ص٨. وبالمعنى نفسه يقول وليم غاي في كتابه أحجار على رقعة الشطرنج: «إن يهود الاتحاد السوفييتي هم من الخزر، استقروا في أقصى الشرق من أوروبا حيث شكلوا مملكة الخزر القوية، ثم بسطوا سلطانهم على معظم المناطق الواقعة غرب جبال الأورال وشمالي البحر الأسود، وقد اعتنق الخزر اليهودية مفضلينها على المسيحية أو الإسلام، وبنوا الكنائس والمدارس لتعليم الدين اليهودي في سائر أنحاء مملكتهم». راجع: كتار، وليم نجار، أحجر على رقعة الشطرنج، تعريب: سعيد الجزائري، دار النفائس، بيروت، طبعة، ١٩٨٧، ص٤٨.

ويقول أيضًا: «والواقع أن هؤلاء اليهود ليسوا ساميين من حيث الأصل العرقي، ذلك أن عددًا ضخمًا من الذين اتخذوا اليهودية دينًا لهم منحدرون من سلالات الهيرودين أو الأدوميين وذوي الدم التركي المنغولي». راجع: المصدر نفسه، ص٤٩. ويقول عبده الخوري حنا: «ومما لا شك فيه أن معظم اليهود الذين يسكنون في أوروبا وأمريكا هم غير ساميين، ولا يمتون بأي صلة نسب إلى بني إسرائيل، وإن اتهام الغرب وغيرهم بمعاداة السامية لم تكن إلا نوعًا من الخديعة يريدون بها الظهور بمظهر المظلوم الذي يستحق العطف والشفقة». راجع: حنا عبده الخوري، الخطر اليهودي على الدين والدنيا، دار الركن للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص٨١.

وتشـير الدلائل كافة إلـى أن السلطة الروسيـة إنما كانت تحول دون إقامة اليهود البولونيين في أراضيها؛ نظرًا لوظيفتهم الاجتماعيـة التجارية، فقد اقترنت كلمة يهودي في تلك العصور بكلمة تاجـر، وأصبحت على مر الزمن مرادفة لها، إلا أن تغيرًا مـن سياسة بطرس الأكبر قد حصل بعد ضم كثير من الأراضي البولونية إلى روسيا، لقد سمح لعدد كبير من وكلاء المال والتجار الكبـار اليهـود بالإقامة في موسكـو، أمثال رجل المـال اليهودي الكبير ليمان الذي أصبح فيما بعد من رجال بلاط القيصر.

ومرة أخرى نرى القيصرة كاترين الثانية تصدر قرارًا بفتح أبواب روسيا أمام التجـار الأجانب؛ ليكون اليهود أول القادمين مـن هؤلاء، وأقاموا رسميًّا في منطقة أنشأت حديثًا عرفت باسم روسيـا الجديدة، ثم يأتي حـدث آخر يحوِّل نحو مليون من يهود بولونيـا القاطنين في المناطق الشرقية إلـى رعايا الإمبراطورية الروسيـة؛ وبذلـك تشكلت كتلـة يهودية كبـيرة في روسيا حملت معها من مناطق نشوئها أوضاعًـا اقتصادية متهاوية، وأساليب تنافس لم يألفهـا الشعب الروسي، لاسيما أن البعض منهم جاء مـن أوكرانيا، وبينهم وبـين الجماهير الروسية كرهًـا تقليديًّا، فظهر نتيجة عن ذلك تقسيم اجتماعي يحمل بين طياته عادات وشعائر دينية ولغة ركيكة مزيج من الألمانية والبولونية والعبرية، تطورت هذه لتصبح لغة تعرف (باليديش).

يقول (جون بيتي) في كتابه الستار الصهيوني حول أمريكا: «وشرع الخزر يهاجرون من ديارهم، وعجل في هجرة الكثير منهم في غزوة المغول تحت قيادة جنكيز خان، واضطهد اليهود الخزر في كييف، وحصلت لهم مجازر كادت أن تقتلع جذورهم أو أن تبيدهم كاملاً، وانتشر اليهود الخزر في نواح مختلفة من غربي روسيا، وقد حدد كثير من حكام الروس أمكنة إقاماتهم وشلوا حركتهم، ومنعوهم من التنقل في البلاد، ولم تكن العلاقات بين السلافيين والخزر اليهود حسنة مستتبة بسبب النزعة اليهودية الطائفية، وحرص الحاخامات على التحكم بمشاعر ومصائر الغير، ويعزى هذا إلى تمسكهم بتلمود (بابل) الذي وضع أيام السبي البابلي[1]، وكان للتلمود الأثر الكبير في صمود الخزر ومكافحتهم في البقاء، ومحاولتهم المحافظة على كيان سياسي وديني مستقل.

(١) يقول بيتي: لقد ورد بالحرف الواحد في (تلمود بابل) ما يأتي: يجب أن لا يعد التلمود كعمل عادي يستحله اثنا عشر مجلدًا، فليس فيه أي شبه لأي عمل أدبي آخر، بل إنه يكون في حد ذاته دنيا قائمة بذاتها، دنيا تسودها نظم وقوانين خاصة. والتلمود يحتوي أمورًا تافهة وأخرى تغلب عليها الرعونة، ولكنه يعالجها بجد واتزان، وهو يحفل أيضًا بالقول المجحف في حق أمم وشعوب أخرى، وفي حق ديانات أخرى، ثم إنه يؤيد ويظاهر تعريض المغرضين وذوي الأهواء بالعهد الجديد، التلمود سجل استعرضت فيه أحداث ستة قرون، فلا عجب إذن أن يتضمن في كل صفحة وسطر جنبًا إلى جنب ما يمت إلى العظيم العادي، والخطير التافه، والمذابح والرماد واليهودية والوثنية، ويختلف هذا التلمود عن تلمود أورشليم أو فلسطين بتحليق الفكر وتغغل الرأي وبريق العبقرية التي تتألق حتى تخطف البصائر، ثم تخبو وتخمد.. وكل شيء عدا التلمود أضحى في نظرهم باطلاً؛ الطبيعة والإنسان، القوة والحدثان. راجع: بيتي، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص١٥-١٦.

سادسًا: اليهود الخزر والقيصرية الروسية

بعد تقسيم الإمبراطورية البولونية للمرة الثالثة أصبح كل من ليتوانيا وبيلوروسيا (روسيا البيضاء) وأوكرانيا وبعض الأراضي البولونية ضمن نطاق الإمبراطورية الروسية، وكانت هذه المناطق آهلة بمواطنيها الفلاحين الأقنان الذين قُدر عددهم بنحو عشرة ملايين نسمة، إلى جانب مليون يهودي، يعملون في مختلف الأعمال ذات الصفة التجارية أو الحرفية المرتبطة بالإقطاعيين، بينما بقي اليهود الأثرياء المعروفون بيهود التاج في وارسو والمناطق الأخرى التي خضعت وفقًا لتقسيم بولونيا ولبروسيا والنمسا.

شكلت الإمبراطورية الروسية عنصر جذب للتجار اليهود؛ فالنظام الإقطاعي فيها مازال متماسكًا، ومجالات العمل وفيرة، والفلاحون والأقنان كثيرون، ويشار إلى أن الكثير من اليهود القاطنين في المناطق الأخرى قد بدؤوا بتقديم الطلبات للقدوم إلى الأراضي الروسية، وهكذا انفتحت الأراضي والمدن الروسية لأول مرة أمام هذه الطبقة التجارية اليهودية العريقة في أساليبها، ويذكر أن تحديد إقامة اليهود ضمن ما عرف فيما بعد باسم (حظيرة التوطن اليهودية)[1] من السلطة

(١) حظيرة التوطن اليهودية، أسلوب اتبعته السلطة الروسية لعزل اليهود في مناطق سكن خاصة، وذلك للسيطرة عليهم ورصد تحركاتهم، وقد شملت حظيرة التوطن اليهودية هذه خمس عشرة مقاطعة في الأراضي الروسية، وعشر مقاطعات في الأراضي البولونية المحتلة، وذلك من مجموع تسع وثمانين مقاطعة كانت تؤلف الإمبراطورية الروسية، وقد توزعت تلك المقاطعات على النحو الآتي: ميلنا وكوفنو =

= وغرودنو في ليتوانيا بينسك، وموهيليف في روسيا البيضاء، فولجينا وودوليا وكييف وشيرنيخوف ولولتافا في أوررانيا، وقد عُدَّت كييف في وقت لاحق خارج حدود الحظيرة وبيسارابيا وفيرشون وايكاتير نوسلافيل وتوريدا في روسيا الجديدة باستثناء مدينة يالطا – وذلك زيادة عن المقاطعات البولونية العشرة من الناحية الرسمية تم الاعتراف باليهود كرعايا وليس كمواطنين، وأطلق عليهم تعريف رعايا، ولعل أهم قرار في هذه القرارات هو تصنيف اليهود ضمن الطبقة الوسطى الدنيا، وذلك في ضوء التقسيم الطبقي السائد في الإمبراطورية الإقطاعية، وكون هذه الكتلة اليهودية مؤلفة في مجموعها من التجار المتوسطين والصغار وما يتصل بهم من أعمال كوكلاء للإقطاعيين وملتزمين وخمارين ومرابين وبعض الحرفيين الذين ترتبط حرفهم بحاجات الإقطاعيين،كما شكل حوض الدنيير مجال عمل في تجارة الخشب. لقد اتفق تصنيف اليهود كرعايا مع تصنيفهم ضمن الطبقة الوسطى الدنيا، حيث إنه لو تم تصنيفهم كمواطنين لتحتم إعطاؤهم حق العمل في كافة الأراضي الروسية النامية. وقد عَدَّ الكاتب اليهودي جوزيف ندافا أن التمييز القيصري إزاء اليهود انطلق من منطلق ديني حيث يقول: «إن التمييز ضد اليهود رسميًّا كان على أساس ديني وليس على أسس عنصرية أو عرقية، حيث كان يمكن لأي يهودي يعتنق الدين المسيحي أن يتبوأ أعلى المناصب الحكومية». بينما تشير القوانين الأخرى إلى نفي ذلك، وإلى أن السياسة الاقتصادية هي الأساس الذي حكم قرارات السلطة بهذا الشأن، فهي قد اعترفت مثلاً باليهود غير التجاريين كالكانيين والكريمشاك والقوزاق والغييم كمواطنين، ولم تورد المصادر المختلفة ذكرًا لقيام السلطة بتشجيع اعتناق هؤلاء للديانة الأورثوذكسية بالرغم من أن السلطة كانت بالفعل تشجع اعتناق يهود المناطق الغربية لتلك الديانة في محاولة منها لتقليص وظيفتهم الاجتماعية التجارية التي عمدت بعد ذلك باستمرار إلى محاربتها بشتى الوسائل. أدت هذه التصنيفات إلى فرض رسوم مضاعفة على اليهود لدى التسجيل لدى جمعيات التجار وإلى فرض ضريبة لقاء إعفاء من الخدمة العسكرية، كما حاولت تقليص سلطة الكحال وحصرها في جميع الضرائب والإشراف على الشؤون الدينية. لقد وضعت هذه التصنيفات يهود الحظيرة وجهًا لوجه أمام الجماهير الفلاحية؛ إذ استمر اليهود في ممارسة أعمالهم التقليدية كتجارة الجملة والمفرق والخمور وجمع الضرائب والمراباة، وشكلت أماكن إقامتهم جزرًا صغيرة متناثرة في كافة مناطق الحظيرة، وفي فترة قصيرة كانت الأموال قد تراكمت في أيديهم، وسيطروا سيطرة شبه كاملة على اقتصاديات الحظيرة، بينما ازدادت نقمة الجماهير الفلاحية عليهم، ويذكر أنه كان يستحيل شراء شيء من المخازن أيام السبت؛ لأن معظم هذه المخازن كانت بيد اليهود. راجع: حجاوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧-١٨.

القيصريـة كان استجابة للضغوط التي تعرضت لها السلطة من التجار الروس.

ويـورد يـوري إيفانـون نقلًا عـن مـؤرخ جيليكمـان قوله: «اشتكى التجار المسكوبيون في عريضتهم من أن اليهود يتعاطون بيع البضائع الأجنبية التي جلبوها معهم من الخارج مع تخفيض أسعارها بالنسبة للأسعار الحقيقيـة، ملحقين بالتجارة العامة ضررًا فادحًـا للغاية، وهذا البيع الرخيص للبضائع ضد جمعية التجار الروس يدل بجلاء على أن هذه البضائع مهربة ولا تخضع للرسوم الجمركية.

إن التجـار المسكوبيـين لا يـرون مـن الضـروري الاختباء بورقـة تين الدفاع عـن الدين؛ بل هم على العكـس يشيرون إلى أنهـم يطالبون بمنـع اليهود من ممارسة التجـارة، ونفي الذين سبـق وأقاموا، وطرد الذين تسجلـوا سرًّا في سجل تجار موسكو ليـس بسبـب أي كراهيـة أو ازدراء بسبب الدين، بـل بسبب ما يلحقونـه من ضرر كبـير، وكان أول إجراء اتخذته السلطة عام ١٧٩٦ بهذا الشأن هو حصـر تسجيل اليهود في جمعيات التجار الخاصـة بالمناطـق التي يقيمون فيها إقامـة دائمة، وقد جاء في القرار المذكور: «يحق لليهود أن يسجلوا في جمعيات التجار ضمن منطقة روسيـا البيضاء (بيلوروسيا) ومنطقة إيكاتيرنوسلافيل

فقط»، وقد جرت عدة تعديلات على هذا القرار في أوقات لاحقة تم فيها توسيع أو تقليص مجالات التسجيل في مجمعات التجار المختلفة كان آخرها عام ١٨٣٥م»[١].

المحاولات القيصرية لإدماج الخزر

يقول فريدمان في كتابه يهود اليوم ليسوا يهودًا: «حاول فلادمير الثالث وخلفاؤه عبثًا إقناع من يزعمون أنفسهم يهودًا باعتناق المسيحية، لكنهم فشلوا جميعًا بذلك، إذ قاوم يهود الخزر هذه المحاولة مقاومةً شديدةً، وقد تمثلت مقاومتهم بالحرص على التنظيم الداخلي للجماعات اليهودية، بحيث أصبح لهم نظام أشبه ما يكون (دولة في داخل دولة)؛ فاليهود لن ينسوا تصفية دولتهم الخزرية على يد المسيحية بالدرجة الأولى، ثم إنهم يتذكرون رفض فلادمير الثالث اعتناقه لليهودية عندما عرضت عليه مرات عديدة من قبل الوفود اليهودية أيام الدولة الخزرية، ثم إن الكنيسة الروسية والمسيحية في أوروبا بصورة عامة تدرك أن اليهود يحاولون إعادة كيان دولة الخزر مرة ثانية، وهذا يؤكده تقرير سري أرسله السير هنري مورغنثو إلى الرئيس وودرو ويلسون يكشف فيه النقاب عن محاولة من

(١) جون بيتي، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص ١٥-١٧ وحجاوي، مصدر سبق ذكره، ص١٨.

يزعمون أنفسهم (يهودًا) ذوي الأصل الخزري تاريخيًّا أن يبعثوا مملكة الخزر كوطن شرعي لهم في بولندا»[1].

أما عبد الرحمن شاكر فيقول: «بعد سقوط بيزنطة في القرن الخامس عشر أعلن القياصرة الروس أنهم أصبحوا ورثة بيزنطة في تمثيل الآرثوذكسية المسيحية، وأطلقوا على موسكو أحيانًا روما الثالثة، واصطنع بعض القياصرة رمز بيزنطة النسر ذا الرأسين علمًا على رؤوسهم وتيجانهم، فلما جاءت الحروب النابليونية نقلت معها فكرة القومية إلى أرجاء الإمبراطورية الروسية، كما نقلته إلى أجزاء أخرى من العالم وأوروبا بالذات.

وفي عهد القيصر نيقولا الأول ١٨٢٥-١٨٥٥م بدأت سياسة الترويس المشهورة للأجناس غير الروسية، وكان المفكر النظري للترويس من مساعدي القيصر (الكونت يوفاروف)، حيث تنص على أن يكون أوتوقراطيًّا (أي الإيمان بالحكم المطلق للقياصرة)، ثم يحمل العقيدة الأرثوذكسية، ويتكلم اللغة الروسية.

وقد عاني اليهود الخزر من هذه العملية الشيء الكثير، إذ كان يجبروا أولادهم في سن الثانية عشرة على الدخول في

(١) فريدمان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩ - ٤٠. وصفوة نجدة فتحي بيروبيجان، التجربة السوفيتية لإنشاء وطن قومي يهودي، مركز الدراسات الفلسطينية، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٣ ص ٣٠ - ٣٥.

معسكرات الخدمة الإجبارية التي يمضون فيها أكثر من خمس وعشرين عامًا يعلمونهم خلالها اللغة الروسية، و يتعرضون إلى أشد أنواع التعذيب من أجل أن يعتنقوا المسيحية، وفي ظل سياسة الترويس ولدت (الحركة الصهيونية) التي بدأت كنزعة دينية في روسيا في أوائل القرن التاسع عشر، كما شكل آخرون (أحبة صهيون).

وتذكر لنا سلافة حجاوي في كتاب اليهود السوفييت: لقد أصدرت السلطات الروسية عام ١٨٠٤م قرارًا نص على السماح للتلاميذ اليهود بدخول المدارس العلمانية إلا أن سلطة الكحال[١]

(١) الكحال أو (القهال) كلمة عبرية تعني جمهور أو جماعة كبيرة من الناس في مكان واحد، أو بالأحرى تعني طائفة يهود في إحدى مدن الشتات اليهود، كذلك تعني الخلية الساسية لتنظيم حياة اليهودي في مكان إقامته، وكانت مهام الكحال مشابهة لمهام الدولة تجاه مواطنيها، وتعد تجسيدًا للحكم الذاتي من قبل الدولة، وقد اهتمت الكحال في البداية بإجراء مراسيم الزواج و عض الشؤون للعائلة اليهودية، ثم تمثيل اليهودية أمام السلطات، والقيام بجمع الضرائب نيابة عن السلطة، وتعيين القضاه والحاخامات، كما أن هناك صلاحيات تجمع بها كالسجن وفرض الغرامات والعقوبات أو التحريم والعزل الاجتماعي، وكان كحال بولندا المعروف باسم (مجلس البلاد الأربع) بولندا الكبرى وبولندا الصغرى وفولينا وليتوانيا، و كان هذا المجلس يتمتع بصلاحيات كبيرة لحد ما؛ منها إقامة المحاكم المستقبلية، وفرض الضرائب، وتعيين القضاة، والإشراف على كثير من مفردات الحياة الاجتماعية وتنظيم حياة اليهود.
وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر شنت الجماعات اليهودية حملات نقدية إلى الكحال وتنظيماته نتيجة الممارسات التي كان موظفو الكحال يقومون بها تجاه يهود منها الابتزاز والرشاوى والاضطهاد، وللبعض دون الآخر. ولما تولى القيصر نيقولا الأول حكم روسيا عام (١٨٢٥م) أوضح منذ بداية حكمه أن اليهود يعدون شعبًا غريبًا يجب عليه أن يكيف نفسه مع الشعوب السلافية اليونانية الأرثوذكسية، =

اليهوديـة رفضت ذلك، وأوقفت القرار متمسكة بالتعليم الديني الذي يحافظ على تماسك اليهود وعلاقتهم بالكحال، فضلًا عن أن التعليم آنذاك قضية اقتصادية يحتاجها المجتمع اليهودي.

وفي ذلك يقول إيفانـوف: «لقد حارب الحاخاميون وتجمعات الكحـال هذا القـرار باعتبار التعليـم العلماني خطيئـةً، ومارسوا سلطتهم بمنع الطلاب اليهود من الالتحاق بالمدارس العلمانية»[1].

وإزاء تنامـي الكراهية بـين اليهود والفلاحـين الأقنان في القرى فقـد أصدرت السلطة عام ١٨٢٥م قرارًا بمنع اليهود من دخـول القرى، كمـا ألغت في العام نفسه قـرار إعفاء اليهود من الخدمة العسكرية، وأصدرت قـرارًا جديدًا يلزم اليهود بتقديم

= أو أن يقاس مـن نتائجه الوخيمة، وقـام بسن قانون للتجنيد الإجبـاري يقضي بأن يـؤدي اليهودي خدمـة عسكرية مدة إحـدى وثلاثين سنة، وعلى سلطـة الكحال أن تقـدم أسمـاء المجندين مـن اليهود، وقد تداول هـذا القرار إلـى أن تفشت الرشوة والمحسوبية بين العوائل اليهودية، وسلطات الكحال، واقتصر تقديم أسماء المجندين علـى العوائـل اليهودية الفقيرة، مما أثـار الحقد والضغينة بـين الأوساط اليهودية المختلفـة، فينتـج عن ذلـك مشاكل كبيرة جرت إلـى حصر اليهـود في أماكن سكن محددة من قبـل القيصر الأول، وفرض على اليهود أمورًا كثيرة منها: عدم السماح لهـم باستخدام الخدم المسيحيين، والزواج قبل سن الثامنة عشرة، أو استعمال لغة اليديش أو مصطلحاتها، وخطـر اسخدام الزي اليهودي، وقام بتقسيم اليهود إلى نافعـين وغـير نافعين، وفرض على حركتهـم في البلاد قيودًا كثـيرة، ثم لم يلبث أن ألغـى القهال أو الكحال في أواخر حكمه عام ١٨٤٤ وجعل اليهود تحت سلطة الإدارة الروسية مباشرة. راجع: عبدالوهاب المسيري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣ – ٣٥.

(١) حجاوي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

عشـرة أفراد عن كل ألف فرد للخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مدتها خمسة وعشرين عامًا. وقد لقي هذا القرار معارضةً شديـدةً من اليهود، كمـا خضعت عملية اختيـار العدد المطلوب للمساومات والرشاوي، ووقع عبء الجندية على العائلات الأقل حظًّا في الثراء.

ويشـار إلى أن رجال الكحال قـد أدوا دورًا كبيرًا في ذلك، حيـث إنهم كانوا يأخذون الرشاوى من البعض لقاء عدم اختيار أبنائهـم للخدمة العسكريـة، ويذكر أن السلطة قـد عمدت إلى اختطاف الأولاد ممن هم دون سن الجندية في محاولة لدمجهم. يقـول ديكي: «إذ إن هؤلاء الأولاد أسـرع في تعلم اللغة الروسية، ومن ثم اعتناق الدين المسيحي والزواج من روسيات»، وإزاء فشل كل هـذه المحاولات بادرت السلطـات في الأربعينيات إلى تشكيل لجنة خاصـة لدراسة المشكلة اليهودية، وقدمـت اللجنة تقريرًا طالبـت فيه «بإجـراء إصلاحـات -جذرية- في أوضـاع اليهود من خلال محاربـة مدارس الحيدر واليشيفـا، وفرض المدارس العلمانيـة في الحظيرة، وإلغاء سلطة الكحال، وعزل كافة الذين لا يقومـون بعمـل اقتصادي عـن طريق تجنيدهـم وإخضاعهم للإجراءات البوليسية».

وقـد صدرت خـلال الأربعينيـات قرارات بفتـح المدارس العلمانيـة في الحظيرة على أمل أن يؤدي ذلك إلى إلغاء مدارس

(الحيدر واليشيقا) الخاصة باليهود. كما صدر قرار بحل سلطة الكحال وتجريده من سلطة الإشراف على تلك المدارس ومن مسؤولية جميع الضرائب، كما بدأت السلطة تتغاضى عن تسلل التجار اليهود نحو المدن الروسية خارج الحظيرة. ويذكر ليون وغيره أن الكثير من هؤلاء التجار قد استطاعوا التسجيل في جمعيات تجار موسكو والمدن الأخرى تحت غطاء بعض الأسماء الروسية «كأسماء بعض النبلاء والإقطاعيين الروس ممن وجدوا الفرصة سانحة للإفادة من أعمال اليهود التجارية»[1].

في حدود عام ١٨٥٥م كانت رؤوس الأموال قد تكونت لدى العديد من يهود الحظيرة، وقد جلب ذلك انتباه السلطة، إذ ما لبثت أن لجأت إلى إعادة النظر في سياستها اليهودية ضمن إعادة النظر في السياسة الروسية عامة وخاصة بعد هزيمة روسيا في حرب القرم الذي شكل عاملًا قويًّا في انهيار الاقتصاد الروسي، وتفاقم الوضع السياسي الذي أجبر السلطات الروسية عام ١٨٦١م إلى إصدار قرار إلغاء القنانة والإقطاع؛ بغية معالجة الموقف الاقتصادي الذي يحتاج إلى رأس المال والأيدي العاملة، لاسيما وأن هناك طبقة النبلاء التي تتكدس لديها رؤوس الأموال دون وجود فرص للعمل[2].

---

(١) المصدر نفسه، وجون بيتي، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص١٨-٢٠.

(٢) شاكر، مصدر سبق ذكره، ص٣٢.

لقد كان قرار إلغاء القنانة والإقطاع انعطافة جديدة في حياة المجتمع الروسي، لاسيما في حياة اليهود الذين شُملوا به أيضًا؛ لينطلقوا من الحظيرة اليهودية باحثين عن الأعمال والاستثمار في المدن الروسية، أمثال كبار التجار الذين كانوا يدفعون رسومًا باهظة للعمل خارج الحظيرة تتناسب مدتها مع ما يدفعونه من الرسوم، كذلك كبار المهنيين من الأطباء والمهندسين والمحامين والحرفيين[1].

لقد عادت الحياة الجديدة لليهود الروس متمثلة باستخدام رأس المال واليد العاملة في إنشاء مشاريع حيوية من شأنها إعطاء اليهود حصة كبيرة في إعمار البلد وبسط النفوذ، وفعلًا بعد مدة ليست بالطويلة نرى أن المزارع الرئيسة وتجارة الحبوب والسكر والصناعات الحيوية أصبحت بيد اليهود، كما أن المدارس الرسمية التي كانت تحظر على الطلاب اليهود ارتداء أزيائهم التقليدية الخاصة بهم صارت تعج بهم من دون التزاماتهم بتلك الممنوعات، كما ارتفعت نسبة الطلاب اليهود في الجامعات والدراسات العليا بعد أن كانت النسب المخصصة لهم ضئيلة جدًا؛ إذ ارتفع عدد الطلاب بعد عامين من قرار السلطة الروسية من (١٩٥) طالبًا إلى (٢٣٦٢) طالبًا؛ مما

(١) بيتي، الستار الصهيوني حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص١٦-٢٨.

ساعد على انتشار اللغة الروسية بين الطلبة اليهود، وشاعت الدعوة إلى الاندماج في المجتمع الروسي وتعلم اللغة الروسية؛ بل وجعلها لغة قومية لليهود، وقاموا بتشكيل جمعيات تدعو لذلك، وراحت الصحف تروج لهذه الجمعيات ومن أشهرها جمعية (نشر التنوير) التي أسسها بطرس برغ سنة ١٨٦٧م.

ثم قامت بافتتاح فروع لها في مدن روسية عديدة من الجهة الأخرى فقد صار مشهد حضور المثقفين الروس في المنتديات اليهودية حالة مألوفة، وصار هؤلاء الروس يدعون إلى رفع الحواجز والتمييز بين الشعب الروسي والجامعات اليهودية، مما زاد في نفوذ اليهود وشجعهم على استغلال هذا الوضع، فنرى ظهور تيار يهودي يعمل بهدوء، تتمثل دعوته بمحاربة الاندماج مع المجتمع الروسي، ويدعو إلى إحياء اللغة العبرية والاحتفاظ بالشخصية اليهودية، وهذه أول البوادر التي ظهرت لنشوء الصهيونية العالمية، وقد ضم هذا التيار طبقات المجتمع اليهودي المهمة مثل البرجوازية المتوسطة والطبقة المثقفة التي كان لها علاقات واتصالات خارجية مع الغرب، والتي كانت تعي أهمية رأس المال واستعماله وسيلة ضغط على الحكومات المضيفة لليهود، وكذلك الوصول بواساطته إلى أماكن صنع القرار، والتغلغل في عنعنات السلطة والتأثير المباشر في

القرارات السياسية التي تتحكم بانتهاج سياسة تتلاءم مع المصالح اليهودية في العالم[1].

إلا أن حدثًا مهمًّا قد طرأ داخل المجتمع اليهودي أدى إلى ظهور الطبقية الاجتماعية عندما ارتفع عدد كبير من التجار إلى مرحلة الرأسمالية، وانخفض الآخرون إلى امتهان الحرف الصغيرة والدنيا في المجتمع، وكان هذا بسبب السياسة اليهودية المنفلتة من قيود السلطة، إذ قضت المنافسة السعرية على عدد كبير من التجار الصغار والمتوسطين، وزادت من ملكية أصحاب رؤوس الأموال والتجار الكبار، وتزامن هذا الحدث مع زيادة عدد السكان اليهود المطردة، مما خرَّجت ملكية المشاريع الإستراتيجية من أيدي مالكيها الروس إلى أيدي التجار اليهود، مثل: مطاحن الحبوب ومعامل السكر ومعامل تقطير الكحول، وهذا الحدث أثار الرأي العام في روسيا، منبهين السلطات إلى أن اليهود قد أصبحوا قوة اقتصادية كبيرة قد تتحكم في يوم ما بمصير الشعوب الروسية؛ بل وحتى السلطة القيصرية، وكتب جاكوب برافمان سنة ١٨٦٩م وكان هذا يهوديًّا تحول إلى المسيحية «أن الكحال يُعِد مؤامرة ضد السلطة القيصرية»، وراجت أمثال هذه الكتابات في معظم مناحي القيصرية

(١) جون بيتي، الستار الحديدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨ – ٢٥ وحجاوي، مصدر سبق ذكره ص ١٢.

الروسيـة، وكتب أحد مسـؤولي الدولة إلـى ولي العهد ألكسندر الثالـث قائلًا: علينا أن نتساءل عـن الأثر الذي يتركه قرار منح الإقامـة لليهـود في جميـع أنحـاء الإمبراطورية علـى الأوضاع الاقتصادية للجماهير الروسية، وقد شبه انتشار اليهود بالوباء، وحـذر مـن الجيـل اليهـودي الجديد الـذي انـدرج في طبقات المجتمع الروسي.

وبـدأ اليهود نتيجة نفوذهم بخلـق المشكلات الاجتماعية والطائفية مع الجاليات الأخرى؛ فقد قامت في أوديسيا مذبحة بينهـم وبين التجار اليونـان عـام ١٨٧١م كان سببها التنافس على تجـارة الحبوب والبقالـة، مما أشعر السلطـات الروسية ببداية الخطـر المحدق بهـا، فراحت كعادتها تصـدر قرارات عديـدة تحـدد حرية اليهـود وحركتهـم في المجتمـع الروسي، كمـا أغلقت كثيرًا مـن المدارس، وحاربت الطقوس والشعارات اليهوديـة، كما أنها أدركت حدثًا اقتصاديًّـا خطيرًا؛ وهو غياب الطبقـة البورجوازية الروسيـة واحتـلال البورجوازية اليهودية محلهـا، وبهذا فـإن الحكومة الروسية ستفقـد أهم سند لها في المجتمـع الروسي مـع أتباعهم من طبقـات الفلاحين وأصحاب المهن الصغيرة؛ فضلًا عن أن تلك الطبقة البرجوازية كانت تحل معظم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عن طريق

هيمنتهـا في المجتمع الروسي، لكن بعد زوال هذه الطبقة أضيف عبئًـا جديدًا علـى السلطات الروسية وهـو أن تقوم بمعالجة ما كانـت تقوم به البرجوازية الروسيـة بنفسها، وبهذا فإن إقصاء اليهـود عن هـذه الأماكن مـن شأنـه زيادة التفـاف الجماهير الروسيـة حول حكومتها، ثـم إعطاء الجماهـير الروسية نظرة مستقبلية بأن جميع المشكلات الاقتصادية وتفشي الفقر وزعزعة الأمـن كل هذا يؤول إلـى تنامي النفوذ اليهـودي داخل المجتمع الروسـي الذي أثقل صغار التجار بالديون الربوية الفاحشة التي دفعت المرابين إلى امتلاكهم معظم الأراضي الزراعية الخصبة في الدولـة، ناهيك عن سيطرتهم علـى قطاع السكك الحديدية وقنـوات التصدير للحبوب والقنب والكتـان التي تقوم على هذه أكتـاف الشرائح الدنيـا في المجتمع؛ ونتيجة لهـذه الأزمات فقد أصبحت الأمور مهددة بانفجـار أمني خطير قد ينشر الفوضى والحروب في المجتمع الروسي.

مما دفـع السلطات الروسية إلى إصدار القرارات المتتالية بخصوص إقصاء اليهود في المدن الروسية، ومنع التجار الصغار والمتوسطـين من العمل خارج الحظيرة اليهوديـة، وأُوقف تعيين الخريجـين في دوائـر الدولة، وأُلغيـت كثير من القـرارات التي تسمـح لليهود بالعمـل في الجيش والمحاكم، كمـا صُودرت بعض

الأراضي التي يمتلكها اليهود، ومنعوا من المشاركة في مجالس البلديات والمجالس الانتخابية[1].

ومحاولة بأخذ زمام المبادرة من قبل الإمبراطورية الروسية فقد قامت في عام ١٨٩٧م بإجراء أول إحصاء رسمي للسكان لمعرفة توزيع وكثافة الشعوب الروسية والجاليات المهاجرة مع بيانات دقيقة لإحصاء المهن والحرف والوظائف لكل شريحة من شرائح المجتمع الروسي، وكانت النتيجة أن مجموع سكان الإمبراطورية (١٢٥,٦٤٠,٠٢١) نسمة، منهم (٥,٠٥٤,٠٣٠) نسمة، أي يهود بنسبة (٤,٢٪) من مجموع السكان العام، من هؤلاء اليهود (١٦١,٥٠٠) نسمة تعترف بهم السلطات الروسية بأنهم مواطنون أصليّون، وكانت كثافة توزيع السكان في أنحاء الإمبراطورية الروسية تختلف بين مدينة وأخرى، ويسري هذا الاختلاف أيضًا؛ إذ يتوزعون بشكل متباين بين منطقة وأخرى تبعًا لمصالحهم كما هو في الجدول رقم (١). أما الجانب الثاني من الإحصاء الذي يهتم بإحصاء المهن والحرف والوظائف فإنه يتمثل بالجدول رقم (٢)، وقد تم بيان نسبة اليهود من هؤلاء المهنيين والحرفيين بالنسبة للمجموع العام.

---

(١) شاكر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢. وبيتي، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.

جدول[1] رقم (١)

المنطقة	مجموع السكان الكلي	مجموع اليهود	نسبهم إلى مجموع السكان ٪	نسبتهم إلى مجموع اليهود ٪
المناطق البولونية	٩,٤٠٢,٢٥٣	١,٣٢١,١٠٠	١٤,١	٢٧
ليتوانيا	٤,٧٣٩,١٨٠	٦٩٧,٨٤١	١٤,٧	١٤,٣
روسيا البيضاء	٥,٣٢٣,٦٣١	٧٢٤,٥٩٠	١٣,٦	١٤,٧
أوكرانيا	١٤,٦٤٣,٠١٥	١,٤٢٥,٦١٨	٩,٧	٢٩
روسيا الجديدة	٨,٢٣٠,٤٨٨	٧٣٠,٢٧٨	٩	١٥
المجموع	٤٢,٣٣٨,٥٦٧	٤,٨٩٩,٤٢٧	٦٠,١١	١٠٠

جدول رقم (٢)

توزع اليهود العاملين في الأعمال المختلفة

العمل	عدد العاملين	نسبة المجموع العاملين اليهود
الحرف والصناعات	٥٤٢,٥٦٩	٪ ٣٧,٩
التجارة	٤٥٢,١٩٣	٪ ٣١,٦
الخدمات المختلفة	٢٧٧٠٤٦٦	٪ ١٩,٤
المهن	٧١,٩٥٠	٪ ٥
النقليات	٤٥,٩٤٤	٪ ٣,٢
الزراعة	٤٠,٦١١	٪ ٢,٩
المجموع	١,٤٣٠,٧٢٧	٪ ١٠٠

(١) الجدولان أعلاه نقلًا عن كتاب اليهود السوفييت لسلافة حجاوي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤ — ٣٥.

يلاحظ من الجدولين السابقين أن كثافة اليهود قد تركزت في المدن التابعة للحظيرة اليهودية، كما نلاحظ أن النسبة الكبيرة من جدول توزيع اليهود العاملين كانت للتجارة والحرف والصناعات، ثم الخدمات المختلفة، أما المشاريع الصناعية فإن الإحصائية أثبتت أن نحو نصف عدد هذه المشاريع تعود ملكيتها لليهود، والجدول رقم (٣) يبين أن هذه المشاريع معظمها إستراتيجية.

جدول[١] رقم (٣)

ملكية المشاريع الصناعية في الحظيرة

المشروع	العدد العام	المشاريع اليهودية
النسيج	٣٧٢	٢٩٩
الخشب	٣٢٩	١٩٩
التبغ	١١٠	٨٣
الجلود	٥٣٠	٢٨٧
الصابون	١٣٩	١٢٢
الطابوق	٧٥٢	١٥٧
التقطير	٨٦٤	٥٧
معامل البيرة	٣٨١	١١٠
المياه المعدنية	١١٩	٨٣
المجموع	٣٦٠٣	١٣٩٧

(١) الجدول أعلاه نقلًا عن سلافه حجاوي، مصدر سبق ذكره، ص٣٨.

وكما هو مبين لقد كان لحيازة معظم الحرف الرئيسة وانتقال الملكيات الأساسية للاقتصاد الروسي بيد اليهود قد سبب في تزايد كراهية المواطن الروسي لليهودي الذي أصبحت بيده معظم مقدرات الشعب الروسي؛ فهو المرابي الذي يفرض هيمنته على أسواق المال، وهو تاجر الحبوب الذي يتحكم برغيف الخبز، وهو صاحب المهنة والحرفة التي يلجأ إليه المواطن الروسي في أغلب حاجاته اليومية، فضلًا عن تحكم مالكي المشاريع الكبيرة والأراضي الزراعية الواسعة بإنتاجهم وفرض الأسعار التي أنهكت كاهل المواطنين الروس؛ بل وأصبحوا يجدون أنفسهم تحت رحمة هؤلاء الضيوف في كل مجالات الحياة.

وتقول حجاوي في كتابها اليهود السوفييت: «ولا يمكن إغفال مشاعر الكراهية التي حملتها مختلف طبقات السكان من روس وأوكرانيين وبيلوروس وغيرهم لليهود، تلك الكراهية المنطلقة أساسًا من طبيعة تلك الوظيفة الاجتماعية التجارية التي دأبوا على ممارستها بشكل ملفت للنظر؛ فقد أدت سيطرة التجار اليهود على معظم تجارة المنتوجات الزراعية في الحظيرة إلى وجود احتكاك مباشر ومستمر بين هؤلاء التجار والفلاحين احتكاكًا لا يختلف كثيرًا عن عهود الإقطاع من حيث طبيعته الاستغلالية، ويصف إسحق دويتشر التطورات الجديدة قائلًا: كان وضع اليهود بشكل عام أفضل من وضع الفلاحين الروس،

وكان الروسي ينظر بعين الريبة إلى البقال اليهودي في القرية أو صاحب الحانة التي كانت تجارته في الغالب تقوم على الاحتيال؛ وذلك زيادة على ما نشأ من عداء مستحكم بين البرجوازية التجارية الروسية والأوكرانية وغيرها وبين صغار تجار الروس، ذلك العداء الذي كان أصلاً وراء تشكيل حظيرة التوطين اليهودية، والذي استمر في التصاعد على شكل تنافس تجاري ضار، هدفه الاستحواذ على أكبر قسط من الأرباح المستلمة أساسًا من أفواه الجماهير الفلاحية المدقعة التي خلفها قانون إلغاء القنانة وتفتيت الإقطاع وجعلها في مهب الريح. كذلك فقد كانت المنافسة على أشدها بين الحرفيين أصحاب دكاكين البقالة والخياطين وغيرهم؛ لا بل إن قطاع العمال الصناعيين كان لا ينظر بعين الراحة إلى العمال اليهود الذين يتوجهون للصناعات الخفيفة من دون أن يقتربوا من الصناعات الثقيلة، ويفضلون الحرف الناعمة على الخشنة منها. كما لا شك بأن تيار الهجرة إلى خارج روسيا الذي بدأه العمال اليهود المهرة قد أثار حفيظة العمال الروس الذين كانوا يبلورون حركتهم العمالية الثورية بقيادة الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وكانوا في أمس الحاجة للعمال الصناعيين المهنيين لدعم الطبقة البروليتارية الناشئة»[1].

(١) حجاوي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩ – ٤٢.

هجرة اليهود الروس

كان للظروف المحيطة للجماعات اليهودية في روسيا الأثر الكبير في نشوء فكرة الهجرة التي كانت تتمثل بنوعين، داخلية وخارجية، فالداخلية من الشمال للجنوب، وذلك سعيًا وراء أماكن الهدوء والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، والخارجية إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت الظروف المحيطة بالجماعات اليهودية تتمثل بالعنف الذي حصل لهم وجرهم إلى دخول نزاعات داخلية تتصاعد بشكل مضطرد، تدفعها أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة؛ فمن الأسباب المباشرة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني الذي اتهم باغتياله اليهود، وشجعت السلطة الجماهير بصورة غير مباشرة على مواجهة اليهود ومحاولة القضاء على نفوذهم بهذه الحجة.

أما الأسباب غير المباشرة فكثيرة، منها نشاط حزب (الناردو) الذي كان له الدور الرئيس في تأجيج الرأي العام وتأليب الجماهير ضد الممارسات اليهودية، وقد عمل هذا الحزب مدةً طويلةً سرًّا، كذلك تأسيس جمعية (العصبة المقدسة) التي أخذت على عاتقها التحريض ضد اليهود والتخطيط لأعمال العنف والتصفيات الجسدية والمذابح

الجماعية، وهذه الجمعية كانت تعمل بالسر وبعلم من السلطات القيصرية، وتذكر المصادر أن (٢١٥) حادثة عنف قد وقعت بين عامي ١٨٨١ – ١٨٨٣م سقط خلالها أعداد من اليهود بين قتلى وجرحى[١]. كما استمرت أحداث العنف ضد اليهود تتوالى بين الفينة والأخرى، وكانت هناك إصابات منظمة استغلت السلطة القيصرية كراهيتها لليهود وشجعتهم بصورة غير مباشرة من خلال إفهامهم أنهم جاؤوا لتحطيم روسيا والقضاء على العنصر السلافي فيها، فضلًا عن القوانين الصارمة التي تقننت فيها السلطات الروسية ضد اليهود، وكان آخرها توجيه تهمة التجسس لحساب ألمانيا؛ إذ قامت السلطة بنقل كافة اليهود المقيمين في المناطق الغربية من حظيرة التوطن ودون تمييز إلى أواسط روسيا، وتم ترحيلهم بطرائق مزرية متمثلة بالقسوة وعدم الاكتراث لملكياتهم أو أراضيهم التي يتركونها وراءهم، ونقلوا بوسائط النقل التي تفتقر إلى أدنى أساليب الراحة مع إذلالهم وتجويعهم وحرمانهم من أي خدمات طبية خلال الطريق.

ومنذ بداية تلك الأحداث في الثمانينيات من القرن التاسع عشر بدأت فكرة الهجرة الخارجية تختمر لدى

(١) بيتي، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص٣٣.، وحجاوي مصدر سبق ذكره، ص٤٠.

الشرائح اليهودية، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية الهدف الأول لليهود؛ إذ الازدهار والاستقرار الاقتصادي والسياسي، وفعلًا خلال عقدين من الزمان هاجر نحو مليوني يهودي إلى الولايات المتحدة، ونشأت جمعية يهودية باسم (عام عولان)، وتعني (الشعب الخالد)، مهمة هذه الجمعية تشجيع الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ودأبت هذه الجمعية على ترويج الدعاية للعمل في الزراعة وإقامة مزارع جماعية في الولايات المتحدة يستطيعون من خلالها إعادة الشمل اليهودي، ومنحة الحياة الحرة الجديدة، في الوقت نفسه كانت بريطانيا و الدول الأوروبية يصدرون قوانين تمنع دخول المهاجرين اليهود إلى أراضيهم؛ إذ كانوا يسمونهم الغرباء، وحذت فرنسا وألمانيا حذو مثيلاتها إلى ذلك[1].

(١) يقول جون بيتي: في نيويورك وحدها يوجد أكثر من مليون ونصف المليون من اليهود، وهم خليط من الروس والبولونيين والإيطاليين، ولكن أكثرهم جاء من ذلك القسم من بولونيا المتاخمة للأراضي الروسية. لقد سيطر يهود الخزر على سائر اليهود الذين هاجروا قبل خمسين سنة إلى أمريكا، لقد سيطروا عليهم وقلبوا حياتهم رأسًا على عقب، وجعلوهم ينصاعون لإرادتهم، وربما كان انصياعهم عن رهبة لا رغبة، وعن خوف لا ميل. لقد قلبت الأوضاع وامتثل اليهود القدماء المخلصون للبلاد على اليهود المستجدين الذين جاؤوا من أوروبا الشرقية في الحقبة الأخيرة، وهذا موطن الخطر. واستفحل أمر الهجرة اليهودية واعترض عليها كثيرون من نواب الأمة، وشيوخها، وصاحوا محتجين: «إننا أصبحنا أمة داخل أمة، أو حكومة داخل حكومة»، وطالبوا بوقف الهجرة حتى لا يتفرق الشعب شيعًا وأحزابًا، وكان عدد اليهود القاطنين في أمريكا سنة (١٨٧٧) زهاء ٢٣٠,٠٠٠ فأصبحوا ٤٧٥,٠٠٠ في عام (١٨٩٠)، ثم ١,٧٧٥,٠٠٠ في عام (١٩٣٦)، وإلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ في وقتنا =

والهدف الثاني من هجرة اليهود كان فلسطين التي بدأت الحكومة البريطانية بتحريض اليهود وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين، لاسيما في عهد رئاسة جيمس آرثر بلفور للوزارة، وفعلًا دخل فلسطين بين عامي ١٨٨٢–١٩١٤م نحو مئة ألف مهاجر يهودي، وكان سبب تشجيع الحكومة البريطانية لليهود باتجاه فلسطين التخلص منهم واستجابة للتظاهرات التي كانت تشهدها شوارع لندن مطالبة بطرد اليهود وعدم السماح لهم بدخول بريطانيا؛ لما يشكلونه من ضرر على مصالحهم الاقتصادية، وقد تشكلت لجنة حكومية لدراسة هذه المشكلة ووضع الحلول السريعة لها، وفعلًا قامت هذه اللجنة بإصدار لائحة تتضمن سلسلة من القيود الصارمة على دخول الأراضي البريطانية.

وقد أشار هرتزل على اللجنة بأن هذه اللائحة لا تجدي نفعًا؛ بل علينا أن نجد مكانًا نفرغ فيه هؤلاء اليهود، وقد أيده بذلك وزير المستعمرات آنذاك (تشمبرلن)، أما بلفور فقد قال

= هذا. ومع ضخامة هذا العدد إلا أن الإحصاء غير الرسمي يرتفع بالعدد إلى عشرة ملايين.. نعم عشرة ملايين!

وفي بحث رسمي عن السكان الأصليين والمهاجرين واليهود وردت هذه العبارة: (وفي سنة ١٩٣٧) كان اليهود يمثلون أربعة بالمئة من مجموع السكان، فأصبحوا الآن يمثلون نسبة أكبر لتدفق الهجرة من أوروبا، لقد زاد عدد الأمريكيين الأقحاح ثلاثة أضعاف منذ سنة (١٨٧٧)، أما اليهود فزادوا ٢١ ضعفًا، أي أن نسبتهم منذ سنة (١٨٧٧) أصبحت ٢١٠٠ بالمئة. راجع: بيتي، الستار الحديدي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ و ٢٧.

«إنه لن يكون في صالحنا أن توجد كتلة بشرية تبقى منفصلة بفعل ممارساتها الذاتية ليس فقط باعتناقها دينًا مختلفًا عن دين الغالبية السكانية؛ وأيضًا بسبب عدم التزاوج إلا فيما بينها»[1].

(وصول اليهود لاستلام السلطة في روسيا)

لقد عمل يهود الخزر الذين لم يهاجروا من روسيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو إلى أوروبا إلى التخطيط الدقيق للوصول إلى سدة الحكم، وكانت بداية ذلك أن قام اليهود بتأسيس الأحزاب والاتحادات السياسية في روسيا والبلدان المجاورة لها، فقد أسسوا (الحزب الروسي) في أواخر الثمانينيات من القرن الثامن عشر، و أنشئ في عام ١٨٩٧م (اتحاد العمال اليهود) في بولندا وليتوانيا، وكانت معظم أهدافه ثورية، وقبل ذلك في عام ١٨٨٤م عُقد اجتماع يهودي دولي عند الحدود الروسية في مدينة كاتويتز حضره ممثلون عن جميع الطوائف اليهودية من جميع البلدان، وكان محور هذا الاجتماع يدور حول احتلال فلسطين، كما أن اليهود في روسيا قد بدؤوا في اعتناق الماركسية ليس لأنها حزب ثوري؛ وإنما لأن كارل ماركس كان يهوديًا، وأن تعاليمه تتفق مع التلمود البابلي، ثم إنهم أيَّدوا

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧ – ٢٨.

البلاشفة تأييدًا فاعلًا؛ لأن الشيوعية تؤدي إلى السيطرة على الحكم، وهم يرومون إلى التخلص من القيصر. وهكذا تألفت من اليهود والخزر والشيوعيين قوة كبيرة أدَّت دورًا مهمًّا في رسم مستقبل البلاد السياسي.

ويقول جون بيتي في كتابه الستار الحديدي حول أمريكا: «وجاءت اللحظة الحاسمة في عام ١٩١٧م عندما كانت روسيا تترنح تحت ضربات ألمانيا قبل أن تقع ألمانيا بدورها صريعة تحت قدمي بريطانيا وفرنسا وأمريكا بعد ذلك بعام واحد، وكانت هذه اللحظة عندما أوقف الشيوعيون في الخامس عشر من شهر مارس عام ١٩١٧م القطار الذي كان يقل القيصر، وقالوا إن حكمه قد انتهى؛ وهنا فقط أحس اليهود الذين يعيشون في روسيا فجأة أنهم قد تخلصوا من الاضطهاد والذل.

وفي هذه اللحظة ظهر لينين على المسرح بعد غياب تسع سنوات، وأدرك الألمان أن لينين لن يكون أكثر من رجل سيثير المتاعب لروسيا عدوة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، فقدمت له كل ما يحتاج إليه من مساعدات، ونقلته هو ومن كان معه من رفاقه الذين قدر عددهم بنحو (٢٠٠) في قطار مقفل من سويسرا حتى حدود روسيا.

وعندما أعلن عن أسماء وجنسيات الذين كانوا يصاحبون لينين في سفرته إلى روسيا اتضح أنه (١٢٨) منهم كانوا من

اليهـود، وفي الوقـت نفسه وصل تروتسكي مـن الولايات المتحدة يتبعـه نحو (٣٠٠) يهودي آخرين من مدينـة نيويورك وانضموا إلى الحزب الشيوعي.

وهكـذا حكم روسيا لينين -واسمـه الحقيقي برونشتاين- وطائفـة من اليهود من غير الروس وعـدد آخر من يهود الروس والخزر، وأصبح أولئك جميعًا سادة روسيا.

إن الزعمـاء الذيـن ينحـدرون مـن أصـل يهـودي أمثـال تروتسكـي وزينونيـف وكامانيف وسفير دولف هـم الذين مكنوا البولشفيـك مـن أن يسيطـروا على مقاليـد الأمـور في روسيا، وعندمـا أصبح لليهود هذه القـوة في روسيا وأحسـوا بأن جهاز الحكم كله غدا رهن إشارتهم أخذوا يوجهون كل وسائل الدعاية لتحقيق مآربهم العنصرية؛ فالصحافة هناك تنشر من يوم إلى آخر طائفة من المقالات التي تهاجم الميول المناوئة للسامية، وقد حدث في عام ١٩٣٥م أن قضـت المحكمة بأن مناوأة السامية في روسيا عقوبتها الإعدام.

ومما يلاحـظ هنـا أن زعمـاء روسيـا ومنهـم ستالـين وكاجانوفيتش وبريا ومولتوف ولينيتوف كانوا إما من أصل يهودي وإمـا متزوجين من يهوديـات؛ فكان زعماء الحركـة الصهيونية السابقـة الذين ظهـروا في أواخـر القـرن التاسع عشـر وأوائل

القرن العشرين من أبناء بلاد أوروبا الشرقية، فتيودور هرتزل مثلاً صاحب فكرة الدولة اليهودية والزعيم الذي رأس المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في سويسرا في أغسطس عام ١٨٩٧م كان من مواليد بودابست، وايزمان أيضًا من مواليد بولندا»[١].

ولذلك فليس بعجيب أن نرى أن المهاجرين اليهود الذين يفدون إلى فلسطين ينتمون إلى أصل سوفييتي أو إلى بلاد شرق أوروبا التي تدور في فلك السوفييت اليوم، «لقد دخلت الصهيونية مرحلتها العنيفة بعد اكتشاف الثروة المعدنية الهائلة في فلسطين؛ إذ قدرت هذه الثروة في البحر الميت وحده بنحو بمليارات الدولارات، وقد عهدت روسيا إلى اليهود الخزر بالمهام السرية ولا سيما فيما يتعلق منها بالجاسوسية، ويتضح هذا من استعراض قضايا الجاسوسية الذرية في كندا؛ إذ كان المتهمون فيها هم سام كار؛ وهو منظم شبكة الجاسوسية، وكل أولئك إما من مواليد روسيا وإما من البلاد التابعة لها»[٢].

هجرة يهود الخزر إلى إنجلترا

مرَّ بنا قبل صفحات كيف تظاهرت الشعوب البريطانية رافضة سماح الحكومة بدخول اليهود واستيطانهم فوق أراضيها،

(١) جون بيتي، الستار الحديدي حول أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣ - ٢٥.

(٢) فريح، غازي محمد، النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص ٢٠٩ - ٢٢٠.

إلا أن أساليب اليهود في تحقيق أغراضهم غالبًا ما تحظى بالنجاح؛ والسبب في ذلك يرجع إلى التخطيط البعيد واستعمال رأس المال اليهودي في تحقيق الغايات بطريقة الرشاوى وإثقال المقابل بالديون الربوية وما شابه ذلك من هذا القبيل، وبالطريقة نفسها فقد نجح اليهود في بلوغ غايتهم بإدخال نفوذهم في إنجلترا؛ إذ دفع المرابون اليهود معونة مالية إلى (كروميل) إثر قيامه بالثورة مقابل حصوله على إقرار من السلطة الإنكليزية بقبول اليهود كمواطنين في إنجلتره، ولكن وجود الملك (شارل الأول) على العرش حال دون ذلك؛ إذ رفض أن يعترف بوجودهم في البلاد، ولكن اليهود لم يلبثوا أن دبروا طريقةً لإعدامه.

وبعد صعود الملك (تشارلز الثاني) عام ١٦٦٠م على العرش كان اليهود قد رسخوا نفوذهم في أسواق بريطانيا، وتمكنوا من السيطرة على مقدرات البلاد المالية، وكانت الأحداث السياسية قد أثرت تأثيرًا كبيرًا في ضعف الخزينة، مما اضطرت الحكومة على الاقتراض من اليهود مقابل فوائد فاحشة، كانت هذه القروض بداية لسيطرة اليهود على البلاد؛ إذ قاموا بحيازة معظم الممتلكات والأراضي مقابل ديونهم التي عجز المقترضون عن سدادها، ثم إنهم استغلوا ضعف الإنجليز المادي آنذاك وعجزهم عن الوفاء بالديون وفوائدها ولا سيما النبلاء منهم، مما أرغمهم على مصاهرة اليهود والاقتران

ببنايهم بعد أن كانـوا يأنفون ذلك ويعدونهم من طبقات لا تليق بهـم في هذا الخصوص، وهذه خطوة أدخلت اليهودية إلى بيوت النبـلاء وإلى أعـرق البيوت الإنكليزية؛ لتصبـح المرأة اليهودية الآمرة الناهية في الدولة[1].

وفي سنة ١٩١٧م بلغ نفوذ اليهود في إنكلترا حدًّا مكنهم من إنشاء أول محفل ماسوني في لندن، وأسندوا رئاسته إلى العاهل الإنكليـزي؛ ليستغلـوا نفـوذه في تحقيق غاياتهـم، وفي السنوات اللاحقة أُنشئت محافـل فرعية في أسكوتلندا وأيرلندا، ومن ثم انتشرت في أوروبا الغربية وجميع أنحاء العالم[2].

وقـد مارس العاهل الإنكليزي تحيزًا كبـيرًا لصالح اليهود علـى الرغم من إعلانه أنه مسيحي، إلا أن يهوديته بالسر دفعته لدعـم الوجود اليهودي سيمـا بالجانب الاقتصـادي، إذ أصدر العديـد من القرارات لصالح اليهـود ومنها تنقية المصارف من المساهمـين غير اليهود ليصبح النفوذ المـالي اليهودي هو القوة المهيمنـة علـى بريطانيـا. عندها أصبحـت لندن المركـز الأول للحركة اليهوديـة العالمية بفعل ثراء اليهـود، وأصبحت الحركة

(١) ناجـي، س، المفسدون في الأرض، دار العربي للنشر والتوزيع والإعلان، ط٢، دمشق، ١٩٧٣ ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

الصهيونيـة تظهـر بشكل لم يسبـق له مثيل. لا سمـا في تطبيق بروتوكـولات اليهـود الراميـة إلـى اغتصاب فلسطـين، وهكذا تتوالـى الأحداث السياسية التي يؤدي اليهـود فيها أدوارًا مهمة لاسيمـا في أماكن صنع القرار، فقـد بلغ نفوذ اليهود ذروته عام ١٩١٠م عندمـا أصبح مجلس العرش البريطـاني تسعة أعضاء يهـود من أصل اثني عشر عضـوًا[١]، كما أن المجلس الاستشاري الأعلى كان يضم عددًا كبيرًامن اليهود.

(١) علـى الرغـم مـن أن عدد اليهـود في المملكة المتحـدة آنذاك لا يتجـاوز الثلاث مئة ألـف نسمة إلا أن تأثير الضغـط السياسي لليهود على الحكومة البريطانية كان قويًّا إلـى درجة جعل بريطانيا تتصـدر المؤتمرات والمشاريع الخاصة بتوطين اليهود، كان لبريطانيا الدور الرئيس في تحريض يهود العالم ومساعدتهم بالهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على حرص البريطانيين الجاد في التخلص من اليهود وممارساتهم، وقد تعاطفت مع الجهود البريطانية دول عديدة أوروبيـة منها وغربية للسبـب نفسه، ويمكن لنا في الجداول الآتيـة أن نرى المواطن التـي وصلت إليهـا الجماعات اليهودية المهاجرة من بلاد الخـزر إلى روسيا ثم إلى البلدان الأخرى، وحيـث إن الجماعات اليهودية موزعة في أرجاء العالم من الناحية الجغرافية على النحو الآتي:

أوروبا (بما في ذلك روسيا الآسيوية، والبلقان، تركيا)	١,٩٢٤,٢٠٠
آسيا (فلسطين المحتلة أساسًا)	٤,٣٧٨,٦٠٠
إفريقيا (جنوب إفريقيا أساسًا)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية (الولايات المتحدة)	٦,٤٠٩,٧٠٠
أستراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

= أمريكا الشمالية:

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢,٨
الولايات المتحدة		٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١,٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠,٩

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الانتليز الهولند	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢,٣
بنما	٢,٥٦٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢,٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠,٤
جمايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١,١
غواتمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠,١
الدومينكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	
فيرجن إيلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	—
كوبا	١٠,٩٠٧,٠٠٠	٧٠٠	٢٠٨
كوستاريكا	٣,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,١
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠,٦
بلاد أخرى	٢٥,٣٣٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,٤
			—
المجموع	١٥٦,٣٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠,٣

أمريكا الوسطى و أمريكا الجنوبية

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأرجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
أكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروغواي	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧٠٦

الأرجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
أكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروغواي	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧٠٦
باراغواي	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠,٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠,١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠,٤
شيلي	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١,٠
كولومبيا	٢٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠,٢
المجموع الكلي للبلاد الأمريكية	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨,٥٣

أستراليا ونيوزيلندا

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
أستراليا	١٧,٨٤٣,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥,٠
نيوزيلندا	٣,٤٨٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	١,٣
بلاد أخرى	٦,٦١٧,٠٠	١٠٠	—
المجموع	٢٧,٩٤٧,٠٠٠	٩٤,٦٠٠	٣,٤

آسيا

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسرائيل	٥,١٩٥,٩٠٠	٤,٢٤٢,٥٠٠	٨١٦,٥

= نسب اليهود في دول أمريكا الجنوبية

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأرجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
أكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروغواي	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧٠٦
باراغواي	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠,٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠,١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠,٤
شيلي	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١,٠
كولومبيا	٢٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠,٢
المجموع الكلي للبلاد الأمريكية	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨,٥٣

بلاد آسيوية

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
إيران	٦٣,١٨٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٣
تايلاند	٥٦,٨٦٨,٠٠٠	٢٠٠	
سنغافورة	٢,٧٩٨,٠٠٠	٣٠٠	—
سوريا	١٣,٧٦٢,٠٠٠	١,٢٠٠	٠,١
العراق	١٩,٩١٨,٠٠٠	٢٠٠	٠,١
الفلبين	٦٦,٥٤٣,٠٠٠	١٠٠	—
كوريا الجنوبية	٤٤,٥٠٨,٠٠٠	١٠٠	
الهند	٨٩٦,٥٦٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	—
هونغ كونغ	٥,٨٤٥,٠٠٠	١,٠٠٠	—
اليابان	١٢٤,٩٥٩,٠٠٠	١,٠٠٠	
اليمن	١٢,٩٧٧,٠٠٠	١,٦٠٠	—
بلاد أخرى	١,٩١٨,٥٠٦,٠٠٠	٣٠٠	٠,٢

=			—
			٠,١
			—
	المجموع	٣,٢٢٦,٤٣١,١٠٠	٢٦,٥٠٠	—
	المجموع الكلي للبلاد الآسيوية	٣,٣٠٠,٩٢٧,٠٠٠	٤,٣٧٨,٦٠٠	١,٣

إفريقيا

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
أثيوبيا	٥٤,٦٢٨,٠٠٠	١,٥٠٠	—
تونس	٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩,٥٩٠,٠٠٠	٣٠٠	
جنوب إفريقيا	٤٠,٧٧٤,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	—
زائير	٤١٠,١٦٦,٠٠٠	٤٠٠	٢٠٥
زامبيا	٨,٨٨٥,٠٠٠	٣٠٠	
زيمبابوي	١٠,٨٩٨,٠٠٠	١,٠٠٠	—
مصر	٥٦,٠٦٠,٠٠٠	٢٠٠	—
بلاد أخرى	٤٢٧,٩٩٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,١
			—
			—
المجموع	٦٦,٨٥٧,٠٠٠	١٠٦,٧٠٠	١,٦

أوروبا

الجماعة الأوروبية

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
إسبانيا	٣٩,١٥٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٠,٣
ألمانيا	٨٠,٦٠٦,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٦
إيرلندا	٣,٤٨١,٠٠٠	١,٨٠٠	٠,٥

إيطاليا	٥٧,٨٢٦,٠٠٠	٣١,٠٠٠	٠,٥
البرتغال	٩,٨٧٠,٠٠٠	٣٠٠	
بلجيكا	١٠,٠١٠,٠٠٠	٣١,٠٠٠	—
الدنمارك	٥,١٦٩,٠٠٠	٦,٤٠٠	٣,٢
فرنسا	٥٧,٣٧٩,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠	١,٢
لوكسمبورغ	٣٨٠,٠٠٠	٦٠٠	٩,٢
المملكة المتحدة	٥٨,٠٣٩,٠٠٠	٢٩٨,٠٠٠	١,٦
هولندا	١٥,٢٧٠,٠٠٠	٢٥,٦٠٠	٥,١
اليونان	١٠,٢٠٨,٠٠٠	٤,٨٠٠	١,٧
			٠,٥
المجموع	٣٤٧,٣٩١,٠٠٠	٩٩٢,٣٠٠	٢,٩

باقي دول أوروبا الغربية

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
جبل طارق	٣١,٠٠٠	٦٠٠	١٩,٤
السويد	٨,٦٩٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,٧
سويسرا	٦,٨٦٢,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢,٨
فنلندا	٥,٠٢٠,٠٠٠	١,٣٠٠	٠,٣
النرويج	٤,٣١٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
النمسا	٧,٨٠٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٠,٩
بلاد أخرى	٧٧١,٠٠٠	١٠٠	٠,١
المجموع	٣٣,٤٩١,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١,٣

البلاد الأوروبية في الاتحاد السوفياتي (سابقًا)

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
أستونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠	٢,١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥,٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢,٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤,٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣,٥٠٠	٥,٢

ليتوانيا	٣,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١,٧
مولدفيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤,٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣,٥

أوروبا الشرقية

البلد	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
بولندا	٨٣,٥١,٠٠٠	٣,٦٠٠	٠,١
تركيا (بما في ذلك	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠	٠,٣
المناطق الآسيوية)	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٤
تشيك	٣٢,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٧
رومانيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٧
سوفاكيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠	—
يوفينيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠	٠,٣
كرواتيا	١٠,٤٩٣,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	٥,٣
المجر	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠	٠,٢
يوغسلافيا			
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,٠٠٠	٠,٦
المجموع الكلي للبلاد الأوروبية	٧٨١,١٧٣,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠	٢,٥

ويلاحظ أنه يوجد دولتان اثنتان (الولايات المتحدة وإسرائيل) تضمان الأغلبية الساحقة ليهود العام (٧٥٪). ولا يزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا في دولة واحدة (فرنسا). وينقص عن النصف مليون في دولة أخرى (روسيا). وتوجد دولتان (جنوب إفريقيا والبرازيل) يزيد عدد اليهود في كل منهما عن مئة ألف. وباستثناء المجر (٥٦ألفًا) والمكسيك (٤٠ ألفًا) لاتوجد دولة واحدة أخرى يزيد عدد اليهود عن (٣٥ ألفًا)، ففي بلجيكا يوجد (٨٠٠)، وفي إيطاليا (٣٣١) وفي أوروغواي (٨٠٠,٢٣) وفي رومانيا (١١٦).

ويرأسه اليهودي (موريس هانكي) (MorrisHanky)، وفي مجلس اللوردات كان لليهود أحد عشر لوردًا. وهكذا استمر النفوذ اليهودي على أشده في السياسة البريطانية خلال القرن العشرين، حتى إن المرشحين الوحيدين لرئاسة بلدية لندن عام ١٩٤٢م كانا من اليهود: وهما: (صموئيل جوزف) (Samuel Joseph) و(فرنك بوليتزر) (Frank Politzir)، وكذلك فرض اليهود على رئيس وزراء بريطانيا السير ونستون تشرشل سنة (١٩٥١) تعيين اليهودي (شارفيل) (Charwelles) وزيرًا لشؤون الطاقة الذرية بالرغم من المعارضة التي واجهها بسبب هذا التعيين. والمهم في الأمر أن أصل النفوذ اليهودي في بريطانيا إنما نشأ بفعل الأموال اليهودية وتحت ضغط الديون التي أغرق بها المرابون اليهود النبلاء الإنكليز قبل قرنين.

= ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمي أيضًا إلى التشكيل العرقي الأبيض، أو التشكيل الاستيطاني ذي الجذور الغربية البيضاء، والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لايوجدون في العالم بأسره، وإنما ضمن تشكيل محدد، وإن وجودهم في بعض الدول أقرب إلى الغياب، ولا يمكن أخذه بالحسبان من الناحية الإحصائية، كما هو الشأن في معظم الأقليات الدينية والإثنية في العالم. فلا يمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودي في الهند إذ لا يوجد فيه إلا نحو (٤٥٠٠) يهودي، أو الوجود اليهود في اليونان (٤٨٠٠) أو بولندا (٣٦٠٠)، أو النرويج (١٠٠٠)، أو زائير (٤٠٠)، أو الفلبين (١٠٠)، أو بورما (٢٠ يهوديًّا فقط). راجع بذلك: المسيري، عبدالوهاب الإيدلوجية الصهيونية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٨ ص ٧٥ – ٨٥، وليون إبراهام، المفهوم المادي للمسألة اليهودية، ترجمة: عماد نويهض، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٨٢-١٨٨.

الأدوار السياسية ليهود الخزر في فرنسا

كان لنشوء وتأسيس المحفل الماسوني في بريطانيا سنة ١٧١٧م الأثر في نشاط الجماعات اليهودية في دول أوروبا وغيرها، إذ انتشرت فروع المحفل الماسوني[١] في كل من المدن

(١) الماسونية أو (البناء الحر) من أقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة، ولكن منشئها ما يزال غامضًا مجهولًا، وغاياتها الحقيقية مازالت سرًا، وقد اختلفت النظريات في أصلها، لكن الذي يرجحه بعض بأن أصول البناء الحر (الماسونية) لا ترجع إلى أصل واحد؛ وإنما قد تكون اشتقت الجانب المادي من الجمعية الرومانية وجمعية البنائين في القرون الوسطى، والمبادئ الفلسفية من تعاليم البطارقة وأسرار الاثنيين، ولا تزال اليهودية العالمية هي القوة المحركة الكامنة وراء الماسونية، والأساتذة الكبار الحقيقيون في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات اليهودية السرية، راجع بذلك: أسكخان، محمد رفعت، جترال، أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي، بلا مكان طبع، ١٣٧٦هـ.
ويوضح لنا الدكتور أحمد نوري النعيمي في كتابه اليهود والدولة العثمانية أن الماسونية جاءت من كلمة (ميس) أو ماسون التي تعني بالإنجليزية والفرنسية البناء أو المعمار، وتضاف إليها عادة لفظة أخرى (فري)، أي حر، فتكون (فري مسون)، وهكذا الاسم يلفظ في العهد العثماني (فرمسون)، ومن هذا اللفظ التركي انتقلت إلى الأقطار العربية فأصبحت تلفظ (فرمصون). والماسونية اسم لهذه الجمعية، وممارساتها وطقوسها، والطريقة التي تدار بها اجتماعات فروعها المحلية التي تسمي (محافل) والتي تربط بمحفل أعظم واحد. أما فيما يتعلق بتاريخ نشوئها فإن هناك تضاربًا في الآراء؛ فمنهم من يقول: إنها نشأت في القرن الثامن عشر، ومنهم يقول: إنها نشأت في هيكل سليمان، وآخرون يرون أنها أقدم من ذلك؛ إذ ترجع إلى الكهانة المصرية وغيرها. إذ معظم تعاليمها تجري بصورة شفهية، أما شعاراتها فهي الحرية والإخاء والمساواة. ويدخل فيها الأعضاء من ديانات مختلفة، ويتلقى المنتمي إليها عون أعضائها الآخرين في إيصاله للمناصب والوظائف المرموقة، داخل الماسونية هناك ثلاث وثلاثون درجة يترقي فيها الشخص من درجة إلى آخرى، ويكون هذا مرتبطًا بنشاطه وإخلاصه وكفاءته، ويمكن أن ينال فيها المراتب العليا كلما ابتعد عن دينه ووطنه، فهذه تسمي الماسونية الرمزية. =

الأوروبيـة المهمة، وفي فرنسـا أُنشئ (محفل الأخـوات التسع)، وكان هـذا المحفـل له فـروع في أنحـاء فرنسا يعمـل تحت راية (حريـة – إخـاء – مسـاواة)، وعمل اليهود علـى تمويل الثورة الفرنسيـة، وكعادتهم تسللـوا إلى البـلاط الفرنسي عن طريق شخصية مهمة هو المركيز (ميرابو)، الذي كان مثقلًا بالديون، حيث عمل اليهود علـى إقراضه مبالغ طائلة مع إغرائه بالنساء ليقـوم بإيصالهم إلى الدوق (دورولیـان) ابن عم ملك فرنسا، ووعـده هـؤلاء بمساعدته في اعتـلاء عرش فرنسـا، وأدخلوه في المحفـل الماسوني ليسهِّل لهم إقامة لجان سرية تعمل بدقة لدفع الأمور باتجاه مصالح اليهود.

وفعـلاً لم تمضـ مـدة إلا واليهود قـد أصبحـوا متنفذين داخـل الحكومة الوطنية الفرنسية التـي أصدرت قراراتها بمنح اليهود جميع الحقوق التي يتمتع فيها الفرنسيِّون، فاستغلوا وضع البلاد ليشعلوا فيها الفتن والحروب الأهلية التي أدت إلى مجازر جماعيـة في أثناء الثورة الفرنسية ثـم تمكنوا بالطريقة الربوية مـن امتلاك الأراضي الواسعة من أيـدي النبلاء الذين أثقلتهم

= أما الماسونية اللوكية فإن جل أعضائها من اليهود، ويطلق عليهم الرفقاء، ولا يسمح لغيرهـم بالدخول فيها إلا في حالة وصـول العضو إلى مرتبة الماسونية الرمزية، أما الماسونيـة الكونية فإنها تحوي اليهـود الخلص الذين يطلق عليهم الحكماء، ورئيس هذا الفريق يسمى الحكيم. راجع- النعيمي مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩-١٨٥.

ديـون اليهـود، ولم يجـدوا سوى التنـازل لهم عـن مقاطعاتهم الزراعية وأملاكهم[1]. وكالعادة أدرك قادة الشعب الفرنسي ما حصل للبلاد من السقوط في كماشة اليهود، وما وصل إليه رجال المال مـن السيطرة على مناطـق صنع القـرار، فألقى (نابليون بونابـارت) كلمة في مجلـس الوزراء أول يـوم لاستلامه السلطة قـال فيها: «إن الوضع الحالي لهذا الشعب الحقير (أي اليهود) في بلادنـا هو وضـع دولة ضمن دولة تعمل مـا ترغب وما تشاء؛ ولذلـك أرى أن نسـارع في تجريـد هـؤلاء من ملكيـة المقاطعات الغالية، ومنع المرابين من تعاطي مهنة رهن الأراضي؛ هذه المهنة الرهيبـة التي مكنت اليهـود من الاستيلاء علـى غالبية أراضي البـلاد الفرنسية...، أيها السادة: إن هنـاك قرى كاملة أخليت مـن أهليها وسلمت بواسطة القضاء إلى اليهود مقابل دريهمات كان أصحابهـا قد استدانوها منهم بفوائـد خيالية، ولما عجزوا عن السـداد قاضاهم اليهود وسلخوا عنهـم أملاكهم، ومن ثم طردوا من أرض آبائهم وأجدادهم»[2].

لكـن نابليون نفسه لم ينجُ من شرك المال اليهودي، إذ كان يحتـاج إلى تمويلات حملاتـه العسكرية في أوروبا، مما اضطره

(١) فرج، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧ – ١٦٨.

(٢) ناجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧.

إلـى مهادنتهم، لكن اليهود أدركوا عـداء نابليون لهم؛ فاستغلوا إمكاناتهـم السياسية والمالية ببيع أسـراره وقطع المعونات عنه، وأدت المحافل الماسونية في هولندا وألمانيا أدوارًا كبيرة في إفشال حملاته من خلال شراء الذمم وإرشاء قادته.

وبالطريقة نفسها يقول غازي محمد فريح في كتابه النشاط اليهـودي في الفكـر والممارسة التـي استغل فيهـا اليهود إفلاس الخزينـة الفرنسيـة والضائقـة المالية التي وقعـت بها الحكومة الفرنسية فأغرقوها بالديون، ودفعوا ببناتهم إلى أعرق العائلات الفرنسيـة ليتهود بعض المجتمـع الفرنسي. وبهـذا الشأن يقول الكاتب الفرنسي أوغست شيراك: «كان اليهودي ناثان روتشيليد أقـدر رجل مال في أوروبا، يراقب وضـع نابليون السياسي ساعة بعد ساعة، ولما علم بقرب سقوطه قام بشراء كل أنواع السندات لترتفع أقيامها عشرات الأضعاف بمجرد سقوط نابليون، وفعلًا في يـوم واحد كانت أرباحه تزيد عن ثـلاث مئة وخمسون مليون فرنـك من الذهـب، كما فعـل أصحابـه الفعلة نفسهـا؛ ليرجع رأسـ المال اليهودي هـو المهيمن على اقتصـاد فرنسا، وظهرت شخصيـات مالية يهودية في فرنسا أمثـال روتشيلد وبلاشرودر وس.آمار وكوهن وسيترن وباروخ وزاخاروف وفاربورغ، وآخرون سموا ملوك الذهب»[1].

(١) ناجي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٩.

يقـول العالم البريطـاني (السير مرنسيـس غالتون): «إن اختصاصـ اليهـود هو تحقيـق وجودهم الطفيلـي على حساب الشعوب الأخرى، وهناك دلائل على أن الماليين اليهود كانوا وراء استمرار التورط الفرنسي في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانيـة؛ إذ تحالفـت الرأسمالية اليهودية مـع بعض السياسيين الفرنسيـين مـن صناعها أمثـال: راماديه واليهـودي جول موك ومايـر وبيدو وموتر؛ فأطالوا أمد الحرب حتى سحب آخر قرش وتهريبـه من خزائن فرنسا؛ إذ تعدُ من النقد النادر المكفول من قبل المصارف اليهودية»[1].

ويقـول الكاتب الفرنسـي: إن في فرنسا مصرفًا أطلق عليه مصـرف فرنسا المركزي، مخول بصك النقود والسندات المالية باسم فرنسا، وهو ممنوح حق الاستثمار للأعمال المصرفية كافة من تداول النقد النادر وسواه؛ علمًا بأنه لا أحد من الفرنسيين أو حتى الدولـة الفرنسية يملك بنسًا واحدًا في هذا المصرف الذي يعمـل باسم الحكومة الفرنسية والشعـب الفرنسي، فكل ما فيه ومـا يربحه للأثرياء اليهود، وكلمـا تكدست فيها الأموال يسارع أصحابها بتحويلها إلى نيويورك أو أوتاوا؛ فتقع البلاد في مشكلة مالية يسارع اليهود إلى حلها بطرائقهم الربوية المعروفة، وهكذا

(١) فـورد هنري، اليهودي العالمـي، تعريب: خيري حماد، دار الآفـاق الجديدة، بيروت، ١٩٦٢ ص ٢٢٩.

تبقى مقـدرات الحكومة والشعب وأماكـن صنع القرار ووسائل الضغط السياسي بأيدي أثرياء اليهود[1].

وتشـير الإحصائيـات إلـى أن اليهـود يملكـون في فرنسـا (٩٠٪) من الصناعـات الثقيلة، و(٩٠٪) مـن التحف الأثرية، و(٩٨٪) مـن أمـوال سـوق المضاربـة والبورصـة، و(٧٩٪) من أمـوال المصارف و(٧٥٪) من مؤسسـات الترانزيت والوساطة، و(٥٥٪) مـن المرافـق التجارية المختلفـة. و(٥٠٪) من صناعة المعادن والمكائن الثقيلة.

وهذا النفـوذ المالي بلا شك قد ساعـد اليهود على ارتقاء المناصـب المهمة والحساسة في الدولة، ودفع القرارات والقوانين إلـى حمايتهـم وحمايـة ممتلكاتهـم، وفي الوقـت نفسـه إفراغ الخزائـن الفرنسية من الأمـوال الخاصة والعامـة لتبقى تحت رحمة أصحاب المال اليهود[2].

وإذا نظرنا إلى الحكومات الفرنسية المتعاقبة وحتى الحالية فإننـا سنجد أغلـب المناصب الحساسـة والمرموقـة والوزارات السياديـة تتداول بين أيدي اليهود حتى لا تخرج السياسة العامة

(١) ناجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥.

(٢) يصـل عدد اليهود في فرنسا ما يقارب (٧٠٠٠٠٠) يهودي، وذلك حسب ما ورد على لسـان أرئيل شارون. راجع: عامر محمد معاذ فارس، العلاقات السورية الفرنسية ما بعد الحرب الباردة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص ١٩٦.

عـن أهدافهم وطموحاتهم في السيطـرة على البلاد ودفعها إلى مواقـف سياسية دوليـة أو إقليمية لصالح اليهـود، ولا سيما في المحافل والمنظمات العالمية[1].

الأدوار السياسية لليهود في الولايات المتحدة الأمريكية

يقـول هنري فـورد في كتابـة اليهـودي العالمـي: «لا يعرف عـدد اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية غير اليهود أنفسهم، والأرقام الخاصة بذلك ملك خاص بالسلطات اليهودية وحدها، وعندما تحـاول السلطات الأمريكية بطريقـة منظمة الحصول علـى معلومات موثوقة تخص اليهود الذيـن يدخلون بنظام إلى هذه البلاد، فإن النفوذ اليهودي يتدخل ليحول دون ذلك»[2].

وقد أصبحت الهجرات اليهودية إلى الولايات المتحدة تسير بشـكل منظم، وهنـاك منظمات تقـوم بإعداد وسائـل الهجرة وجـوازات السفـر والسيطـرة على المشـكلات التـي تعيق تدفق اليهـود إلـى الولايات المتحـدة؛ ليجد هؤلاء المهاجـرون الفرص المهيأة لهم من العمل والسكن التي تهيئها لهم الجمعيات السرية من أبنـاء جلدتهم، وأنهم سيجدون السيطـرة اليهودية المطلقة والقويـة تمامًا هنا، كما كانوا يجدونهـا في روسيا، وعندما غدا

(١) فورد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١، وناجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١.
(٢) فورد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.

التيـار اليهـودي يسيطر على مناحي السلطـات المهمة والحيوية في البـلاد طلبت سلطات الإحصاء مـن الكونغرس السماح لهم بتصنيـف الناس بحسب أجناسهم وحسب أماكن ولادتهم، نرى أن اليهـود قادوا أعنف معارضة داخـل الكونغرس للحيلولة دون حـدوث ذلك، ووقف سيمون كوغنهـايم وجوليان ماك متزعمان تلك المعارضة التي اتضح من خلالها النقاط الآتية:

١- أن اليهودي يعارض في أي تصنيف عنصري لجماعته بعد دخولهم البلاد.

٢- أن اليهودي يعارض أي تشريع يقيد دخوله للبلاد.

٣- أن اليهـودي يدعـي أمـام الآخريـن بأنه يمثـل دينًا لا عنصرًا.

٤- أن لليهـودي رأيـان، أحدهما يواجه به غـير اليهودي، والثاني يحتفظ به لنفسه ويجهر به أمام إخوانه اليهود.

وعلى هذا الأساس فإن الولايات المتحدة سوف لن تستطيع أن تعمـل إحصاء، أو بالأحـرى سوف لن تنجح في تحديد أعداد اليهـود أو أماكـن قدومهـم أو وجودهـم، فلـو سألـت الولايات المتحـدة عن عدد الفرنسيين أو البولنديين أو الإفريقيين لقدمت إليك الرقم فورًا، لكن إذا سألت عن عدد اليهود في البلاد فإنها

ستكـون عاجزة في الرد عليك؛ لأن السجلات والوثائق تكون هي الأخرى عاجزة عن ذلك[1].

لقـد وصلـت أول مجموعـة مهاجرة مـن اليهـود في أيلول ١٦٥٤م إلـى ميناء أمسـتردام التي تحول اسمهـا فيما بعد إلى نيويـورك، وكانت تتكون من ٣٣ شخصًـا، ثم تتابعت الجماعات اليهودية ترد من أوروبا الشرقية منذ عام ١٨٨١م، وعلى الرغم مـن أن الحياة في أوروبـا بالنسبة لليهود كانـت مفعمة بالرخاء إلا أنهـم كانـوا دائمًـا يتوقون إلـى استغلال الفرص لمضاعفة ممتلكاتهـم المالية التـي يجدون بها الوسيلـة الوحيدة للسيطرة علـى العـالم؛ وفعلًا استغل اليهـود حرب الاستقـلال الأمريكية عام ١٧٧٥-١٧٨١م؛ لتكون فرصة لتمويل هذه الحرب؛ بل كانوا يمولون الطرفـين بالأموال والأسلحة؛ بغيـة إطالة أمد الحرب؛ لأن المستفيد الأول والأخير هم أنفسهم.

وبعد استقـلال الولايات المتحدة الأمريكيـة عن بريطانيا هرع المرابـون اليهود بالتدخل المباشـر في الاقتصاد الأمريكي، وكان ذلـك بوساطـة مصـرف إنكلترا الـذي كان تحت سيطرة المرابـين اليهـود، إذ تم إنشاء بنـك أوف أمريـكا سنة ١٧٨٣م، وهـذا لم يكن إلا فرعًا لمصـرف إنكلترا الذي يملكه اليهود، وقد تنبـه بنجامين فرنكلـين -أحد زعمـاء الاستقـلال في أمريكا-

(١) فورد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨. وناجي، مصدر سبق ذكره ١٨٦.

إلى الخطـر اليهودي على البلاد ومستقبلهـا، فأطلق تحذيرات في خطابـه الشهـير الذي ألقاه أمـام المجلـس التأسيسي لوضع الدستور الأمريكي سنة ١٧٨٩م، وطلب موافقة المجلس على طرد اليهود من الولايات المتحـدة، وقال في خطابه: «أيها السادة، في كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي وأفسدوا الذمة والتجارة فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم.

وقـد أدى بهـم الاضطهاد إلـى العمل على خنـق الشعوب ماليًّـا، كما هي الحال في البرتغال وإسبانيـا، إذا لم يبعد هؤلاء مـن الولايات المتحـدة بنص دستورها فإن سيلهـم سيتدفق إلى الولايـات المتحدة في غضون مئـة سنة إلى حد يقـدرون معه أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيروا شكل الحكم الذي بذلنا في سبيله دماءنـا، وضحينـا له بأرواحنـا وممتلكاتنا وحرياتنـا الفردية، ولـن تمضِ مائتا سنة حتـى يكون مصير أحفادنـا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود، على حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين...، إنني أحذركم -أيها السادة- إنكم إن لم تبعـدوا اليهـود نهائيًّا فلسوف يلعنكـم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركـم. إن اليهـود لن يتخـذوا مثلنا العليا ولـو عاشوا بين ظهرانينا عشرة أجيال»[1].

(١) مأمـون سعيد، حكومـة العالم الخفية، ط٩، دار النفائـس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص ٢٩٠، وناجي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

إلا أن المجلس التأسيسي لم يعر أهمية لاقتراح فرنكلين بسبب نفوذ الماسونية داخل المجلس، فضلاً عن الرشاوى التي تلقاها القسم الآخر من الأعضاء، و ما هي إلا مئة سنة فقط -أي نصف المدة التي حددها فرنكلين- حتى أصبحت قوة المال اليهودي (حكومة خفية) تصنع الرجال والأحداث في العالم الجديد؛ بل تقوم بإزاحة من يشاؤون من وظائف الدولة والمناصب الحساسة؛ حتى وصل بها النفوذ إلى اغتيال الرئيس الأمريكي إبراهام لنكولن سنة ١٨٦٥م[1] بعدما أفشل مخطط البروتشيلديين في تقسيم الولايات المتحدة الأمريكية، وفي سنة ١٧٩٠م وصل هاملتون إلى منصب وزير المالية، وبذلك استطاع أن يمنح مصرف أوف أمريكا حق إصدار النقد، وهكذا لزم اليهود مقدرات الشعب الأمريكي المالية، وقد صدرت ردود فعل غاضبة من قبل كبار القادة الأمريكيين لترفض هذا الشيء لكن من دون جدوى.

وقد حدث تقارب روسي أمريكي عندما قام قيصر روسيا إسكندر الثاني بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية في إبطال

(١) اغتيل لنكولن على يد اليهودي الأمريكي جون وليكس في مسرح فورد في ١٤ نيسان (١٨٦٥م)، وتمكن الجاني من الفرار، ولكن بعد مطاردته في فيرجينا ألقي القبض عليه، وهو مصاب بجروح قاتلة، ويقال إن أحد المطاردين أطلق عليه النار، إلا أن آخرين يقولون إنه انتحر بإطلاق النار على نفسه، وقد تبين فيا بعد أن عملية الاغتيال كانت نتيجة مؤامرة من قبل اليهود، راجع: فريح، مصدر ذكره، ص ١٩١-١٩٣.

مؤامـرة اليهود في تقسيم الولايات المتحـدة، وكان هذا التقارب قد شكل خطرًا كبيرًا على المخططات اليهودية السرية في العالم؛ مما دفع اليهود إلى دعم ثورة البلاشفة في روسيا والقضاء على حكـم القيصـر بغرس بذور الصـراع السوفييتي الأمريكي؛ لمنع أي تقـارب بيـن الدولتين في المستقبل[1].

ويذكر فورد في كتابه (اليهودي العالمي) قائلًا: «إن اليهود في الولايـات المتحدة الأمريكية لم يكتفوا بالسيطرة على منابع المال وأماكن الضغط السياسي؛ بل راحوا يتدخلون في ديانة الآخرين، محاولـين محو كل إشارة تعطي طابعًا مسيحيًّا في الحياة العامة، ويعـد هذا الطابـع مهـددًا لسلامتهم وهدوئهـم، وهكذا يتحقق البرنامج اليهودي العام الذي يتلخص في ثلاث نقاط:

أولها: تثبيت أقدامهم.

وثانيها: تحطيم كل ما هو غير يهودي أو مناوئ لليهودية.

وثالثها: تمجيد اليهودية في جميع مظاهرها.

وهـذا البرنامج يُعد خطوة نحو تهويـد المجتمع الأمريكي؛ إذ يقـوم على إلغاء الصلوات المسيحيـة وبعض روايات شكسبير مـن المدارس العامـة، وإقامة محاكم يهوديـة في الأبنية العامة، والاهتمام بحقول التعليم وفق ما يتماشى مع أهداف المخططات

(١) فريح، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢ – ١٩٣.

اليهودية السرية والعلنية التي ترمي بالتالي إلى الوصول إلى عنعنات الحكم ومراكز السلطة، وفعلًا نرى أن ممتلكات طرق المواصلات في المدن الأمريكية صارت في أيدي اليهود، وانتقلت المناصب القضائية في نيويورك والنقابات المهنية والمنظمات السياسية إلى أيدي اليهود، كما سيطرت الجماعات اليهودية المتنفذة على المحكمة العليا؛ حتى إن المدينة صارت وقفًا سياسيًّا و قضائيًّا على اليهود، ولم يكتفِ اليهود بهذا القدر من هذا النفوذ؛ بل إن عليهم أن يستحوذوا على مراكز السياسة الخارجية التي تدفع الولايات المتحدة باتجاه مصالحهم، وتحديد علاقتها الدولية وفقًا للخطط اليهودية المرسومة.

يقول جون بيتي في كتابه الستار الحديدي حول أمريكا:

«ومن المؤكد أن اليهود الخزر الذين هاجروا من روسيا إلى الولايات المتحدة كعملاء حقيقيين للسوفييت هم اليهود الذين عاشوا في الولايات المتحدة وتكيفوا بأسلوب الحياة فيها، إلا أن هناك حقيقة بارزة نحب أن نسجلها عن هؤلاء جميعًا؛ فالقادمون الجدد على اختلافِ نزعاتهم كانوا أشد تصميمًا من سابقيهم في مقاومتهم فكرة الاندماج في الحضارة المسيحية الغربية، كما كانوا أكثر ميلًا وعزمًا على تحقيق أهدافهم بطريق الضغط المتكرر والتحيز السياسي، وفي النصف الأول

مـن القرن العشرين لم يستهو الحـزب الجمهوري إلا عدد قليل من هذه الملايين التي قدمت من دول شرق أوروبا؛ ذلك لأنه كان حـزب الأغلبية، ولم تكن به حاجة إلـى مساومة أحد للانضمام إليه، أما الحزب الديموقراطي فكان على العكس من ذلك حزب الأقلية، وكان في حاجة شديدة إلى أصوات أكثر.

وحـدث في عـام ١٩١٢ أن انتخـب وودرو ويلسـون رئيسًـا للجمهوريـة بأغلبيـة ساحقـة، وكان ذلـك بسبـب الانشقاق في الحزب الجمهوري بين أتباع وليم هوارد تافت وبين أنصار تيودور روزفلت؛ فضـلاً عن شدة حاجة الحزب الديمقراطي إلى مزيد مـن الأصوات؛ فقد كان حزبًا ينقصـه التجانس بين الجماعات التـي يتألف منهـا، و لعل هذا هـو السبب الجوهـري الذي دفع بالكثيريـن مـن مهاجـري دول شرق أوروبـا لاسيمـا المشتغلين بالسياسـة منهم إلى الانضمام إليه[١]، وعندما وصف وليم براد فـورد الحزب الديموقراطي في مقالـه الشهير (مشروع ترومان لتنصيب إيزنهاور رئيسًا) قال عنه: «إنه ليس حزبًا سياسيًّا على الإطلاق؛ بـل هو مجرد عقد يقوم على أساس مصلحي بالنسبة لجماعة متناقضة يعد كل منهم الآخر»[٢].

---

(١) بيتي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١ - ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.

لقد كان الحزب الديمقراطي يتكون في أوائل القرن العشرين من مجموعتين كبيرتين هما البروتستانت والريفيون من أهل الجنوب، والكاثوليك الشماليون من أهل المدن، وكانوا حماة للحضارة المسيحية الغربية، ثم كانت الجماعة الثالثة التي أخذ عدد أعضائها يتزايد بسرعة مدهشة منذ عام ١٨٨٠م، وكانت مؤلفة من مهاجري دول شرق أوروبا، وظهر منهم لويس براندايز اليهودي الذي جاء من براغ، وقد عينه الرئيس ويلسون رئيسًا للمحكمة الأمريكية العليا لأسباب لا تزال مجهولة عند الشعب الأمريكي.

ولا بد أن نركز اهتمامنا بعض الشيء على هذا الرجل؛ نظرًا لما بلغه من قوة ونفوذ بفضل ما شغله من مراكز قضائية وغير قضائية؛ ولأنه أيضًا رمز لمستقبل الحزب الديمقراطي، لقد ثارت بسبب هذا الرجل معركة تاريخية في مجلس الشيوخ كان سببها ما عرف عنه من تطرف في تصرفاته ومواقفه، ومن نقص في كفايته القضائية، وكانت هذه الصفات قد اعترضت من قبل سبيل تعيين سبعة من رؤساء نقابة المحامين الأمريكيين؛ ومن بينهم اليهيوروت وزير الخارجية السابق، ووليام هوارد تافت رئيس الجمهورية السابق[١].

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣ – ٣٤.

وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التي واجهت تعيين براندیز أصدر مجلس الشيوخ قرارًا بتاريخ ٥ يونيو ١٩١٦ يقضي بالموافقة على تعيينه، وكان هذا اليوم الذي صدر فيه القرار من أهم الأيام في التاريخ الأمريكي؛ لأنه أصبح لدينا للمرة الأولى في حياتنا منذ أوائل القرن التاسع عشر موظف كبير في مركز من أرفع المراكز في بلادنا تخالف ميوله الحقيقية مصالح الولايات المتحدة؛ موظف يفسر القانون لا على أنه نتيجة السوابق؛ بل طبقًا للنتائج التي يريدها المفسر، ولقد سجلت دائرة المعارف اليهودية العالمية مقالًا طويلًا عن القاضي براندیز هذا، جاء فيه: «شغل براندیز نفسه خلال الحرب العالمية بدراسة المراحل السياسية للقضايا اليهودية في كل بلد دراسة عميقة، ومنذ ذلك الوقت ركز كل اهتمامه الفعال على الصهيونية، فزار فلسطين عام ١٩١٩م لأسباب سياسية وتنظيمية، ومول عدة مشاريع اجتماعية واقتصادية هناك»، وبراندیز كقاضٍ لم يحاول أن يشغل نفسه بالمشكلات الأكاديمية كمسألة الملاءمة بين الأمريكيين وثقافة الأقلية مثلًا.

لقد ابتعد براندیز عن أصول القضاء المتفق عليها وأخذ يبذل كل جهوده في معالجة اقتصاديات الأقلية اليهودية في أمريكا، والاهتمام بالقومية اليهودية، لقد عبر عن حقيقة ما

يعتقد بقوله: إن فلسفتنا الفردية لم تعد تصلح أساسًا ملائمًا لمعالجة الحياة الاقتصادية الحديثة.

إن براندیز يحسب أن الدستور يجب أن يكون متحررًا، ويمكن أن يؤخذ هذا على أنه اتجاه جديد[1] من جانب المحاكم الأمريكية لاتخاذ وظيفة الهيئات التشريعية، ولم يكن هذا هو كل ما وصل إليه براندیز من سيطرة؛ بل أن نفوذه على الرئيس ويلسون قد فاق الحد؛ فالمعروف أنه هو الذي دفع ويلسون إلى الدخول في الحرب العالمية الأولى، وهو الذي ساعد على إطالة مدى هذه الحرب، الأمر الذي أدى في النهاية إلى زيادة الخسائر الدموية عند المشتركين فيها.

(١) فورد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨. وبيتي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.